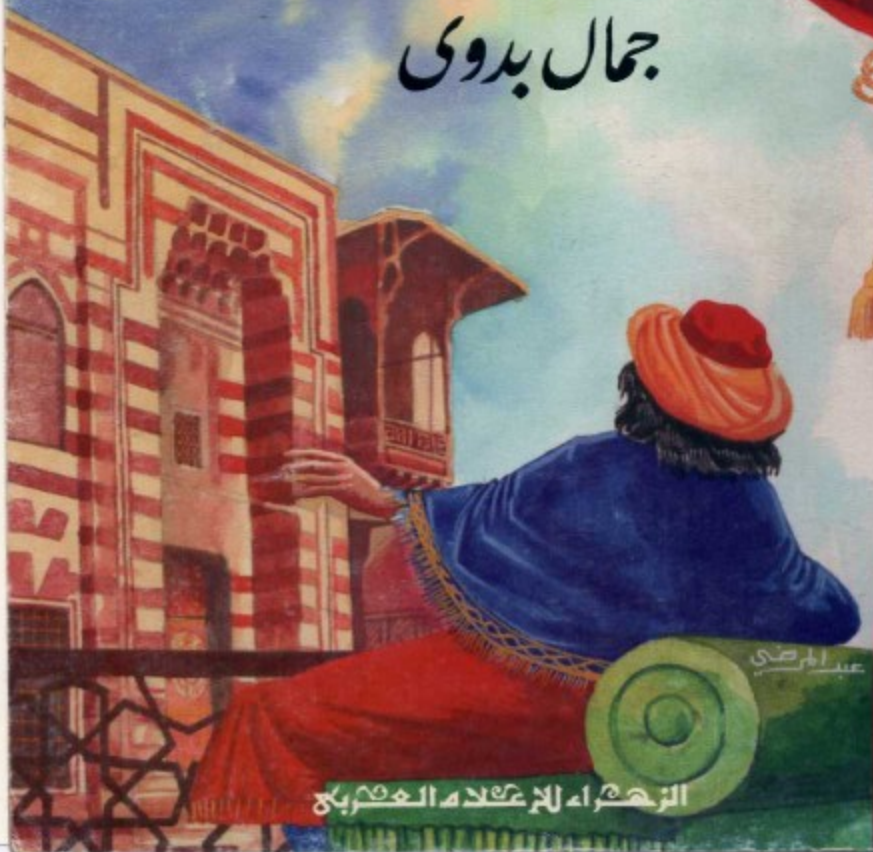


الصعاليك

على عرش مصر
نظرات في تاريخ المماليك

تأليف
جمال بدوي



المماليك

على عرش مصر
نظرات في تاريخ المماليك

تأليف
جمال بدوي

الزعماء للإعلام العربي

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

الزهاء للإعلام العربى

قسم النشر

ص ب ١٠٢ مدينة نصر — القاهرة — تلغرافياً زهرايف تليفون : ٢٦١١١٠٦ / ٤٠٢١٩٨٨ فاكس : ٢٦١٨٢٤٠

P.O: 102 Madinat Nasr. Cairo -Cabl : Zahratif- Tel : 2611106 - 4021988 - Fax : 2618240

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

« وَ مِمَّنْ اٰجِسِّنُ قَبُوْلًا مِمَّنْ دَعَا اِلٰى الْاِيْتِهٰدِ
وَعَمَلٍ صِيْحًا حَاوَقَالَ اِنِّيْ مِّنَ الْمُسْلِمِيْنَ »

مَسَدَقُ اَبِي الْعَظِيْمِ

فَضَلَتْ / ٢٢

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

حقوق الطبع محفوظة

ولا يجوز طبع أي جزء من هذا
الكتاب أو تخزينه بواسطة أي نظام
لخزن المعلومات أو استرجاعها أو نقله
على أية هيئة أو بأية وسيلة سواء كانت
إلكترونية أم شرائط ممغنطة أم غير
ذلك ، أو أية طريقة معلومة أو مجهولة
إلا بإذن كتابي صريح من الناشر .

الجمع التصويري والتجهيز

بالزهراء للإعلام العربي

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

مقدمة

« المماليك » ظاهرة تاريخية عرفتھا كل الدول القديمة عندما كانت تضطر إلى شراء العبيد وتجنيدھم بعد تربيتھم وتدريبھم على فنون الحرب ، وعرفت مصر هذا النظام فى العصور الوسطى ، وكان له فى تاريخھا أثر بارز عندما صار هؤلاء المماليك حكاما على مصر زهاء ثلاثة قرون .

والأمر الملفت للنظر أن شهدت عهود الحكام المماليك نهضة علمية وعمرانية لا تزال معالمها باقية فى المساجد والقلاع والأضرحة التى تمثل قطاعا كبيرا من آثار مصر الإسلامية ، ولا ننسى أن هؤلاء المماليك هم الذين خاضوا المعارك الحاسمة ضد الصليبيين ، وافتتحوا هذا السجل التاريخى بمعركة المنصورة التى كانت نقطة حاسمة فى مجرى الحروب الصليبية فهزموا ملك فرنسا لويس التاسع وأسروه ثم أطلقوه بعد أن افتدى نفسه ، ولا ننسى أن هؤلاء المماليك هم الذين وقفوا فى وجه الهجمة التتريّة الهمجية التى دمرت معالم الحضارة فى المشرق الإسلامى فأنقذوا الإسلام والمسلمين من الفناء والدمار.

ولكن .. فى مقابل هذه الصفحة الزاهية من تاريخ المماليك ، توجد صفحة ملطخة بالمظالم ، وقد عانى المصريون القهر والقمع والجبروت على أيدى هذه الطبقة الحاكمة ومن يلوذ بها ، وتضاعف إحساس المصريين بالألم بعد أن فقد المماليك مبرر وجودهم ، وزالت عنهم معالم القوة ، وجنحوا إلى الضعف والتخاذل ، ومع ذلك زادت شراھتھم للمال ، فاستخدموا السلب النهب والسطو فى جمع هذه الأموال .

وقارئ التاريخ المملوكى يقع فى حيرة نتيجة هذا التناقض بين مزايا المماليك ومساوئھم ، ولكن الباحث التاريخى لا يقع فى هذه الحيرة ، لأنه يضع الحكم

المملوكى فى أطار العصر الذى عاشوا فيه وتقاليده وآدابه والباحث المنصف يتناول الحدث التاريخى من كافة جوانبه ، ولا يقع أسير أحكام أو أوهام أو مشاعر عاطفية ، عندئذ تنبسط أمامه كل معالم الصورة بما تحتويه من ألوان وظلال ، ويأتى حكمه خاليا من الانحياز إلى المماليك أو التحامل عليهم .

وقد حاولت فى هذه الدراسة أن أقدم للقارئ صورة واقعية تقترب من الحقيقة بقدر الإمكان .

وأرجو أن أكون قد وفقت ، فإذا لم يكن الأمر كذلك ، فأسأل الله المغفرة ، وهو سبحانه وتعالى من وراء القصد .

جمال بدوى

مصر الجديدة

ديسمبر ١٩٩٥

الفصل الأول

١

الطغاة الذين على عرشهم

دولة الأتقاء

دولة الأرقاء

لاتزال ذكرى المماليك نشطة في وجدان المصريين المحدثين، وعلى كثرة ما تعاقب على مصر من دول فلن نجد بينها دولة تركت بصماتها القوية على تاريخ مصر الوسيط مثل دولة المماليك، لقد ودعت مصر عهد الولاة واستقبلت عصر ابن طولون، ومن بعده الإخشيد، ثم تملكها الفاطميون نحو ٢٠٠ سنة أو يزيد، وجاء من بعدهم الأيوبيون، ومع ذلك لم يبق من ذكراهم جميعا سوى أطراف باهته تعتاد الذهن المصرى وكأنها بقايا حلم مندثر. أما دولة سلاطين المماليك التي عاشت زهاء ثلاثمائة عام، فقد كان لها الأثر الأكبر في حياة المصريين وعواطفهم، رغم وحدة الآلام التي عاناها المصريون طوال تلك العهود، ورغم تقارب الشبه في المعالم بين المماليك وبين من سبقوهم، وبينهم وبين من خلفوهم. فقد عاش المصريون على امتداد هذه العهود وهم غرباء في بلادهم، ولا إرادة لهم فيما يجرى لهم، ولا صوت لهم في اختيار حاكم.. وتتوالى عليهم الدول وتتعاقد الأنظمة وهم قعود يودعون الدولة الغاربة، ويستقبلون الدولة القادمة دون أن يكون لهم رأى في الذى ولى، أو رأى في الذى جاء!!

عندما تبحث عن:

سر هذه العاطفة الشاذة التي يحملها المصريون للمماليك، فربما وجدت تفسيرها في تلك الآثار الهائلة التي تركها المماليك، فقد كان السلاطين والأمراء والوجهاء يتنافسون على بناء المساجد والمدارس والأضرحة والأسبلة والمارستانات والخانقاوات ودور الرعاية الاجتماعية، ولا ييخلون بمال على إنشاء هذه المؤسسات الحضارية وإدارتها ووقف الأراضى على نفقاتها، وقد فعلوا ذلك ربما تكفيرا عن خطاياهم

وتطهيراً لا يديهم الملوثة بالدماء، وتأكيداً لحسن إسلامهم، وقرابات إلى الله عساه أن يغفر لهم في الحياة الآخرة ما اقترفوا من آثام في الحياة الأولى. فأينما سرت في شوارع القاهرة القديمة التي يسمونها خطأ بالمعزية- فأنت واجد أثراً يحمل اسم بيبرس أو قلاوون وأولاده وأحفاده- أو برقوق وابنه فرج أو خوشقدم أو بشتاس أو قايتباي أو الغورى.. ولن تجد من بقايا الفاطميين- غير الأزهر- سوى بضعة مساجد تحمل اسم الحاكم أو الأمر.. ولن تجد للأيوبيين أثراً يذكر لأن الحروب الصليبية شغلتهم عن الدخول في مجال المنافسة المعمارية، باستثناء فلسفة صلاح الدين، ولن تجد من آثار ابن طولون سوى مسجده العتيد بحى الصليبية والذي لا يزال قائماً كما تركه.

ومع تقديرنا الكبير لهذه النزعة الحضارية التي استبدت بالمماليك ودفعتهم إلى بناء هذه الآثار العظيمة، والتي حققت لهم الهدف الذي كانوا يصبون إليه.. إلا أن هذه الواجهة الحضارية لا ينبغي أن تصرفنا عن فهم حقيقة أمرهم، وهي أنهم تملكوا مصر غصبا واقتداراً، واستبدوا بها دون مشورة من أهلها، وجعلوا منها ضيعة خاصة، يحلبون لبانها، ويعتصرون أموالها ويبددونها وفق هواهم، ثم عاشوا وماتوا وهم غرباء عن أهلها، لا تربطهم بالمصريين عاطفة أو نسب، لا يخالطونهم، ولا يصاهرونهم، ولا يتكلمون لغتهم، وأحالوا أرض مصر إلى إقطاعات عسكرية يتخاطفونها، كما تتخاطف النسور الجارحة الطيور الوديدة، وصار النهب والسلب والعدوان على أملاك الناس قانوناً وعرفاً، حتى وصفهم المقرئى في عبارات مسجوعة: «ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة، يتفقدون على الضعيف ويشرهن حتى فى الرغيف، جهادهم الإخراق بالرئيس، وغزوهم فى التبن والدريس».

نظام عجيب:

واصطنع سلاطين الممالك نظاما عجيبا فى الحكم، قل أن تجد له نظيرا فى تاريخ الحكم فى أية أمة من الأمم. فلا هو ملكية وراثية مطلقة أو غير مقيدة، ولا هو جمهورية شورية يرأسها فرد يحظى بموافقة أغلبية الشعب، بل هو نظام أقرب شيها بحكومة الأشراف فى اليونان القديمة. غير أن نبلاء اليونان كانوا من الشعب، وإن كانوا طبقة ممتازة تغار عليه غير طبيعية غير مصطنعة، وتعطف عليه عطفًا صادقًا لا كلفة فيه ولا تصنع، وتحرص على أن تلقى رضاه، بل كانت تعتبر نفسها صاحبة الوطن والمسئولة عن سعادته وسعادة أبنائه.

أما فى مصر فقد كان الممالك طبقة طارئة على الشعب وغريبة عليه، فهم شراذم وافدة من أم شتى، وأعراق متنافرة، لا يجمع بينها سوى الطمع والأثرة والتغلب على الحكم وإيذاء الشعب واستلاب أمواله بكل وسائل البطش والقمع والقسوة، ثم إنهم قبل ذلك وبعده: أرقاء. عبيد... يحكمون شعبا من الأحرار.. وقد زادت هذه العقدة من طغيانهم وصلفهم وعسفهم بالمصريين الذين سبقوهم فى مضمار الحضارة والتنوير أحقابا طويلة.

كيف تأتى لهؤلاء العبيد الذين جلبوا من سوق النخاسة أن يصيروا ملوكا على مصر؟

هذا سؤال يجب أن نفكر فيه طويلا لنعرف كيف تدور عجلة التاريخ فى مسارها الطبيعي، فتخضع لقوانين وسنن أشبه بالحسابات الرياضية، فمن شأن الضعيف أن يلقي جزاء ضعفه عننا وإذلالا.. ومن شأن القوى أن يتيه بقوته فخرا وإذلالا.. ولقد فرط المصريون فى شأن أنفسهم عندما تخلوا عن شرف الدفاع عن وطنهم، وتركوا هذه المهمة المقدسة لغيرهم من الأجناد الأجنبية، فلم تلبث هذه الشراذم الغريبة أن

تسيطر على الحكم وتديره بالطريقة التي تعجبها لا بالطريقة التي تتمشى مع قواعد العدل والإنصاف.

لقد كان مبعث شراء المماليك أن يكونوا جنودا يخوضون المعارك، وحراسا على الحدود من غارات الطامعين، وقوة تساند الحكام فيما يواجهون من مؤامرات ودسائس في معارك الصراع على السلطة، ولكن الحارس لم يلبث أن صار سجانا على سيده، على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي ستانلى لين، وهو يرصد تطور النظام المملوكى فى دولة الخلافة العباسية؟ قالت إليهم القوة الفعلية وصاروا يشغلون المناصب العليا فى الدولة، ثم تجرءوا على أسيادهم الخلفاء، بالخلع حيناً، والضرب والسحل والقتل وسمل العيون أحيانا كثيرة.. وما أحسب عبارة ستانلى لين بول، إلا صدى لتحذيرات الفقيه الفيلسوف ابن رشد حين شبه الجيش بالراعى إذا تجاوز حدوده فقال: وماذا لو أكلت كلاب الراعى غنمه (!!) ولكن ما أسرع أن تضيع نصائح الفلاسفة والمفكرين فى ضجيج السياسة وغمرة الحكم (!!) وما أقل أن يستمع الحكام إلى نصائح الفلاسفة، لأن الحكام لا يستمعون إلا إلى الصوت الصادر من ذواتهم، ويحسبون أن عقولهم ترجح أفكار الفلاسفة. وأن خبرتهم العملية تفوق خيالات الفكر ومثالياته.

ظلال باهتة:

لقد استبد الأرقاء الترك بالسلطة فى الدولة العباسية قبل أن يتسللوا إلى مصر، وقبل أن تبتلى مصر بهذا النظام الشاذ، وصارت دولة الخلافة ألعوبة فى أيديهم يحركونها كيفما شاءوا.. وتحول الخلفاء معهم إلى ظلال باهتة، ولقد حق لهؤلاء الترك الأجلاف أن يفعلوا ما فعلوا لأنهم أمسكوا بزمام القوة العسكرية فى أيديهم، وصار شراء المماليك وتجنيدهم هو المصدر الوحيد لتجيش الجيوش، ومن يملك زمام

القوة العسكرية يحق له أن يملك الحكم وتلك سنة الحياة فى كل زمان ومكان.

وإذا شئنا أن نعيب على المماليك استبدادهم بالسلطة، وتسلبهم على الحكم، فمن باب أولى أن نعيب على من اشتراهم وأعطاهم السلاح.. ولا يحق لمن نفخ الكير أن يشكو من لسع الجمرات. ولا يحق لمن زرع الحنظل أن يتبرم من مرارته. ولا يحق لمن ربي فى بيته أسدا وليدا أن يلوم الأسد إذا خان سيده وقضم رأسه.. لأن الأسد من طبعه الشراسة، وليس من طبعه أن يخضع لقيم الوفاء لمن رباه، وأخلاق السياسة، لا تعرف هذا الضرب من السلوك الرفيع. والحكام الذين فكروا فى جلب المماليك لم يفعلوا ذلك من باب العطف عليهم أو إيوائهم فى الملاجئ ودور الرعاية. وإنما جلبوهم لهدف واحد، هو أن يكونوا قوة عسكرية تساندهم ضد خصومهم فى الداخل، وأعدائهم فى الخارج، وكان المماليك يعون ذلك جيدا، فأبلوا فى المعارك خير البلاء.. انتظارا للحظة الانقراض على أسيادهم.. فماذا إذا انقلب السحر على الساحر. واستدار الأسد ليهبش وجه سيده و يقضى عليه قضاء مبرما!!.

لقد كان الخليفة العباسى «المعتصم» ابن هارون الرشيد أول من استكثر من جلب المماليك الترك، وأعجبه فيهم قوة العضلات، وفحولة الأجساد وضعف العقول، وسذاجة التفكير، فأراد أن يجعل منهم قوة يضاهاى بها قوة العرب والفرس، وهما القوتان اللتان كانتا تتصارعان على النفوذ والسيطرة فى دولة بنى العباسى منذ قيامها، فالعرب- ومنهم الخليفة- يمثلون الأرسقراطية العربية التى فتحت العراق وإيران وأذربيجان وخوازم وأرمينيا.. ومن ثم أعطت لنفسها حق الاسئثار بالحكم دون مزاحمة من أصحاب البلاد الأصليين.

أما الفرس أصحاب الأرسقراطية القديمة، فهم الذين مكنوا للعباسيين من إقامة دولتهم على أنقاض الدولة الأموية، ومن ثم راودهم الأمل فى أن يستعيدوا مجدهم

الضائع، عن طريق احتكار المناصب العليا إذا شق عليهم أن يطمحوا في الخلافة، وكانت بين الفريقين شحناء وضغائن واحن وصراعات، رأى المعتصم أن يخمدتها باصطناع فريق يدخل الحلبة يكسر شوكة هؤلاء وأولئك وينصره عليهما إذا احتكم الأمر، وما درى أنه صب على النار زيتا فازداد أوارها حتى أتت على ما تبقى للخلفاء من نفوذ.

همجية وفوضى:

كان قصد المعتصم من جلب المماليك الأتراك أن ينصروه في ميدان الصراع على السلطة. ولكنهم خذلوه في ميدان النظام والأمن والاستقرار. وقد قلت لك إن هؤلاء الترك كانوا أقرب عهدا بالهمجية والفوضى، وتكاثرت شكاوى أهل بغداد من عدوانهم وتصرفاتهم البربرية، وانطلق الشعراء يسلقون المعتصم باللسنة حداد لأنه وضعهم في مواجهة هؤلاء الأجلاف، واضطر المعتصم أن يحول بينهم وبين الناس فبنى لهم مدينة عسكرية هي «سامراء» حتى ينحصر أذاهم بين حدودها.. وكيف لمثل هذا العلاج السطحي أن يقضى على الداء الذي استشرى وتمكن.. فالمماليك زادت شوكتهم، وانفسح أمامهم سلك الترقى في المناصب العسكرية حتى بلغوا أرقاها، وانتقلوا منها إلى المناصب الإدارية العليا في داخل الدولة وخارجها، وصار منهم حكام الولايات الكبرى، وكانت مصر من نصيب أحدهم وهو أحمد بن طولون، فما أن تربع على عرش مصر حتى فعل ما فعله المعتصم، واستكثر من شراء المماليك، حتى صار جيشه يضم أربعة وعشرين ألفا منهم، وبهذه القوة العسكرية الصارمة تمكن أحمد بن طولون من أن ينفرد بحكم مصر ويشق عصا الطاعة على السلطة المركزية في بغداد، ودارت بينه وبين دولة الخلافة حروب كان النصر فيها حليفه، مما دعاه إلى أن ينقل الخليفة «المعتمد» إلى مصر لتكون مقر له بدلا من بغداد، ولكن المحاولة لم تنجح بسبب يقظة رجل الدولة القوي «الموافق» أخو الخليفة

وولى أمره !!.

وصار اقتناء الممالك سنة متبعة عند كافة الحكام، حتى راجت تجارة الرقيق، وأخذت طابعا عالميا، وتعددت مصادر شراء الممالك. وصارت لها مراكز ووكالات يتجمع فيها النحاسون، وفي أيديهم أمشاج من الصبية الذين باعهم آبائهم في بلاد الترك والشركس والأكراد والصقلب والأرمن والسلاف.. حتى البلاد الأوروبية دخلت في مجال المنافسة وأخذت تصدر أبناءها إلى الشرق.. وكان للحكام والسلاطين وكلاء وخبراء يعرفون كيف ينتقون الصبية الذين يتوسمون فيهم القوة، وكان الآباء يتنافسون على بيع أولادهم لما يعلمونه من المستقبل السعيد الذى ينتظر أولادهم عندما يشتد عودهم فيصيرون أمراء وسلاطين.. ولا تعجب إذا عرفت أن أحد سلاطين مصر الممالك - وهو خوشقدم - كان المانيا.. وأن «بيبرس» كان روسيا.. وأن «لاجين» كان من ضفاف بحر البلطيق.. وأن «كتبغا» كان مغوليا.. ولا تعجب لما ذكره الرحالة الألماني أرنولد هارف الذى زار القاهرة فالتقى باثنين من الممالك أحدهما من مدينة «بال» السويسرية، والآخر من مدينة دانزج البولندية.. أما الرحالة الإسباني «تافور» فقد اكتشف أن مندوب استقباله فى القاهرة كان «بلدياته».. من قشتالة.. ومن مواليد إشبيلية.

الحملة الصليبية:

كان السبب فى شراء الممالك - كما قلت لك - سببا داخليا صرفا، وهو رغبة السلاطين فى بناء قوة عسكرية تكون عوننا لهم فى معارك الصراع على السلطة، ولكن هذا السبب الداخلى البحت أضيف إليه سبب خارجى بحت، فاجتمع السببان على ضرورة الإكثار من شراء الممالك لمواجهة هذا الطارئ الجديد الذى هدد الدويلات الإسلامية وعرضها للفناء والضياع، وأعنى به الحملات الصليبية التى

جاءت من الغرب تحت راية الصليب طمعاً في ثروات الشرق، وتصفية لحساب قديم مع دولة الإسلام، ونجحت الحملات الأولى في أن تقيم في قلب العالم الإسلامي دويلات مسيحية أوروبية الصبغة والهوى والمذهب!! وأنى لهذه الجيوش أن تقام بغير المماليك .. الجنود المحترفين.

عندئذ ازدهرت تجارة الرقيق. واشتعلت أسعارها، وانتشر النحاسون في كل الأصقاع يجلبون ما يلبي حاجة الملوك، ويلبي حاجة الظرف التاريخي الذي فرض على الدول الإسلامية، وكان ملك مصر الأيوبي: الصالح نجم الدين أيوب أكثر ملوك الأيوبيين سعياً إلى اقتناء المماليك، فأقام لهم معسكرات خاصة في جزيرة الروضة، ومن ثم اكتسب هذا الرعيّل الأول من المماليك اسم «البحرية» لما بينهم وبين بحر النيل من جوار. وبهؤلاء المماليك البحرية خاض نجم الدين معركة المنصورة عام ٦٤٧ هـ. التي كانت أول اختبار لقدرة المماليك وحنكتهم العسكرية، وفي هذه المعركة الفاصلة كشف البحرية عن شجاعة فائقة، فدحروا الجيش الفرنسي وأسروا الملك لويس التاسع، الذي افتدى نفسه بالمال.

خرج البحرية من معركة المنصورة وقد كتبوا شهادة ميلادهم كقوة عسكرية يحسب لها ألف حساب، ومن ثم ساورهم الأمل في أن يصعدوا إلى قمة السلطة، وكأنما ساعدتهم الأقدار على تحقيق هذا الأمل فأزاحت من طريقهم أستاذهم ورب نعمتهم الملك الصالح نجم الدين فاخطفه الموت أثناء المعركة، ولكن الثمرة لم تكن قد بلغت درجة النضج. ذلك أن وريثه وأم ولده «شجرة الدر» أصرت على استقدام ابنه «توران شاه» من منفاه في أعالي العراق ليتولى عرش أبيه.. وربما فعلت لتسد الشغرة التي يريد المماليك أن ينفذوا منها إلى حكم البلاد. وأذعن المماليك- الذين صاروا أمراء وقادة يخشى بأسهم- إلى رأى شجرة الدر، على مضمض لأنهم رأوا أن المسرح صار خالياً.. وليس غيرهم من يملؤه بما قدموه من جهاد وبلاء.. وجاء توران

شاه لا ليملاً الفراغ الذى تركه أبوه، ولا ليحسن إلى هؤلاء الذين احتراموه فاستقدموه، ولكن ليعيث فى الأرض فسادا. وبعض اليد التى انتشلته من المنافى لتضعه فى قمة الحكم، عندئذ رأى الممالك أن يعجلوا به. ولا يتركوا عمل اليوم إلى الغد المجهول، ففضوا عليه ضربا ثم حرقا ثم غرقا فى مياه النيل أمام فارسكور، وانطوت صفحة النيل على هذا الأمير الأرعن لتبدأ صفحة جديدة من تاريخ مصر ليس لها نظير فى تاريخها القديم الطويل.. ولك أن تتصور مصر فى تلك الفترة وعلى رأسها امرأة قوية الشكيمة صلبة الإرادة، يحيط بها شذمة من المغامرين الذين يتطلعون إلى الصعود إلى القلعة: مركز الحكم الرسمى فى ذلك الوقت.

الفصل الثاني

٢

الحق اليك على عيش خط

طوت سبتة

اتفقت إرادة أمراء المماليك البحرية، ومعهم شجرة الدر، على اختيار عز الدين أيك ليقوم بدور السلطان لمصر المحروسة، ويقوم بدور الزوج لشجرة الدر.. ولم يكن اختياره لأنه يملك الصفات المطلوبة للوظيفتين، بل لأنه يفتقد مواصفات الملك وصلاحيات الزوج، وتلك إحدى غرائب السياسة ودواهيها. نعم.. كانت الظروف الحرجة التي تمر بها مصر في تلك الآونة تتطلب في من يتولى أمرهم أن يكون قوى الشكيمة، صلب العود.. وكانت طبيعة الزمرة العسكرية المتربصة تستلزم سلطانا يتعامل معهم بنفس أخلاقياتهم. شرسا. خثونا غدارا.. يلعب «بالبيضة والحجر» ليكبح جماح تلك النسور المتحفزة من حوله، ولم يكن «أيك» على شيء من ذلك.. وما ظنك برجل وصفه مؤرخو عصره بأنه كان متدينا.. مصليا.. تقيا.. عفيفا.. كريما.. وتستطيع أن تضيف من عندك دون أن تشعر بوخز الضمير أنه كان ضعيفا.. لينا.. طيبا بالمفهوم المصرى، الذى يطلق صفة الطيبة على السذج والمستضعفين.

لهذا السبب وحده:

اختاره الأمراء البحرية سلطانا، حتى يستطيعوا صرفه والاستغناء عن خدماته فى الوقت الذى يناسبهم دون أن يلقوا منه شغبا أو مقاومة.. فالرجل لم تكن له شوكة أو عزوة ولم يصنع لنفسه شلة تنصره من دون هؤلاء الأبالسة، وعلى حد تعبير أبو المحاسن بن تغرى بردى: كان أيك من أواسط الأمراء مكانة «يعنى لم يكن من عليتهم» حتى إذا بدا لهم أن مصلحتهم تقتضى صرفه من العرش، فعلوا ذلك فى سهولة ويسر لضعف شأنه، وضآلة نفوذه!!.

لكل هذه «الميزات».. اختاروه ملكا عليهم.

ولكل هذه «الميزات» قبلته شجرة الدر زوجا يتحرك بأصابعها، وتحكم هى من وراء ظهره.

وقبل الرجل الطيب أن يكون «خيال المئات» لمن اختاروه ملكا.. ورضى أن يكون صوتا لسيدته التي اختارته زوجها.. يتكلمن باسما.. وينطق بصوتها. ويضع بصمته على المراسيم التي تصدرها الملكة غير المتوجة كما كان حالها مع زورجها الراحل - نجم الدين أيوب- وهو يعاني سكرات الموت في معسكر المنصورة.

واطمأن الجميع إلى هذا الحل لعله يرضى خليفة بغداد فيكف عن تبكيتهم، ويرضى خاطر المصريين فيرفعون عنهم سلاح التنكيت، وتصورت كافة الأطراف أن سفينة مصر المحروسة سوف تمضي الهوينى إلى شط الأمان.. ولو إلى حين.

الرجل الطيب:

وقبل أن امتطى معك سفينة مصر المحروسة وهي تخوض بحر الظلمات، أجدنى عاجزا عن الإبحار قبل أن أعرض عليك طرفا من حياة هذا الرجل الطيب الذى جعله الضعف ملكا والدين زوجا.. وعهدنا فى الحالين أن يكون الرجل قادرا على القيام بمهام الملك وواجبات الزوج. وأجدنى مشغولا باستعراض صحيفة هذا الرجل الذى لم يكن لديه أدنى طموح فى الملك ولو بالقياس إلى زملائه. كما لم يكن لديه أدنى تفكير فى الزواج من امرأة تتفجر طموحا وأنوثة وحيوية ورغبة فى الاستئثار بالسلطة.

ينتمى إليك إلى شعوب التركمان الذين يعيشون فى بلاد ما وراء النهر.. ولا أدرى إذا كان أبواه قد اطلقا عليه هذا الاسم.. أم أنه اكتسبه بعد أن ابتسمت له الدنيا وصار نجما فى بلاط الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاسم «أبيك» يتكون من مقطعين مشتقين من اللغة التركية القديمة. المقطع الأول «أى» ومعناه «قمر» و «بك» ومعناه «الأمير» فىكون مجمل اسمه: «الأمير قمر» وقد ساق رباح الرق هذا القمر كما ساق الألوف من أبناء جنسه حتى استقرت به فى بلاط الملك الأيوبى

الذى اكتشف فيه من السجايا الحميدة والأخلاق الكريمة ما جعله يعتقه .. ويقربه . ويختصه فيعهد إليه بتدبير شئونه الخاصة داخل البيت، وبلغ من ثقته به أن عهد إليه بوظيفة «جاشنكير» وهى وظيفة كانت عالية المقام فى قصور ملوك ذلك الزمان . ومؤداها أن يقوم «الجاشنكير» بتذوق الطعام قبل سيده ضمانا لخلوه من السم، كشأن المؤامرات التى كانت شائعة فى القصور .

ومعنى ذلك أن أيبك كان يعرض حياته للموت يوميا من خلال الوجبات الثلاث التى يتناولها السلطان .. وليس دليلا على استعدادده للتضحية بروحه فداء للمليكة أكبر من هذا .. ولاشك أن سيدة القصر شجرة الدر كانت تلمس عن قرب هذا الاخلاص النادر من جانب أيبك ،وتختزن فى نفسها مشاعر الإعجاب بهذا الأمير النبيل . ولاشك أنها كانت تراقب حركاته داخل القصر مؤثرا جانب السلامة والوداعة والهدوء .. راغبا عن المشاركة فى الشلل والتكتلات التى جعلت من المماليك شيعا وأحزابا تحركها الانتماءات العرقية، والأطماع الشخصية .

الدائرة الحديدية:

لم يكن أيبك من المماليك البحرية، فعاش خارج الدائرة الحديدية التى تشكلت فى بلاط نجم الدين، وجمعت زعماء هذه الفرقة العسكرية التى لعبت الدور التاريخى فى معركة المنصورة سنة ٦٤٧هـ وتم نصر المسلمين على يديها . وحن الوقت لكى تجنى ثمار شجاعتها وبلائها، لقد أصبح المسرح خاليا بعد وفاة نجم الدين، وإبعاد سيدتهم شجرة الدر، ولم يكن أكثر من محطة صغيرة تكفى لكى يحتله المغامرون الطامعون .. وعليك أن تعى أسماءهم جيدا . لأن هذه الأسماء سوف تصادفك فى صفحات التاريخ محاطة بهالة من الشهرة والمجد .. وهم الذين صنعوا تاريخ هذه الدولة العجيبة: دولة المماليك .. وسأعرض عليك أسماءهم حسب

ظهورهم على المسرح.

أولهم: أقطاي «الجمدار» .. تركماني .. باعه النخاسون في أسواق دمشق لرجل اسمه إبراهيم الحبيلى .. رباه على الغالى حتى علا قدره، وغلا ثمنه، فباعه بألف دينار إلى الملك الصالح نجم الدين. فأدخله في زمرة المماليك البحرية بالروضة حتى صار نجما. وترقى في وظائف القصر إلى مرتبة الأمراء، وشغل وظيفة «الجمدار» الذى يشرف على هندام السلطان ويساعده على ارتدائه ملابس قبل أن يخرج إلى قاعة العرش .. وهى وظيفة تشبه وظيفة «الليس» التى انتشرت فى زماننا على أيدى الفنانين والفنانات، وصار أقطاي زعيما لطائفة المماليك البحرية، وأحد أركان النظام الجديد الذى ظهر عقب وفاة السلطان، واختار لنفسه لقب «فارس الدين» .. وإياك أن تخلط بينه وبين فارس الدين أقطاي «المستعرب» الذى كان أول من استقبل جثته قطز بعد اغتياله فلما سأل عن قاتله نطق بيبرس: أنا..، فرد عليه: يا خوند.. تسلطن مكانه !!

فالأول «الجمدار» والثانى «المستعرب».

واليك النجم الثانى من نجوم المماليك البحرية:

بيبرس البندقدارى: روسى من القبجاق الذين يعيشون حول حوض نهر الفولجا.. تداولته أيدى النخاسين حتى وصل الشام. فعرضوه على الأمير الأيوبي صاحب حماه ليشتريه، وكان من عادة هذا الأمير ألا يقدم على شراء العبيد قبل أن تستعرضهم والدته.. وحين نظرت الأميرة من وراء الستار توسمت الشر فى عينى الغلام بيبرس فقالت لابنها: لا يكون بينك وبينه معاملة فإن عينيه الشر فيهما لا يح.. فأعرض عن شرائه.. وتناقلته الأيدى حتى اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين «البندقدارى» ودفع فيه ٨٠ درهما.. ومعنى البندقدارى: حامل البندق.. فاكسب اسم سيده وفقا للتقليد

المملوكى الذى ينسب المماليك إلى وظائفهم أو إلى أسيادهم أو إلى أثمانهم وليس إلى آبائهم .. وقدم علاء الدين مملوكه بيبرس هدية إلى السلطان نجم الدين .. فقبل الهدية .. وأعتقه، وضمه إلى زمرة المماليك البحرية لينفسح مجال الترقى أمامه إلى قمة السلطة، ويصير أعظم ملوك المماليك.

وإليك النجم الثالث من نجوم البحرية: قلاوون .. الذى يقول المؤرخون إنه ينتسب إلى أسرة تركمانية جلييلة فى القبجاق، ولكن الأقدار حكمت عليه بالرق حتى ساقته إلى بلاط السلطان نجم الدين عندما كان مبعدا عن مصر. ويقضى أيام النفى فى قلعة «كيفا» التى تقع فى أعالي العراق ولكنها من ممتلكات مصر، وصاحب قلاوون سيده فى رحلة العودة إلى مصر، فأعتقه، وضمه إلى زمرة المماليك البحرية بالروضة، ثم أخذ يترقى فى مناصب القصر ليصبح أحد الأمراء الذين اشتركوا فى اختيار أليك، ثم هيات له الأقدار أن يحكم مصر ومن بعده أولاده وأحفاده سنين طويلة كانت استثناء فى نظام الحكم المملوكى الذى لا يعترف بالوراثة.

وسوف أعرض عمدا عن ذكر الزعيمين الرابع والخامس، من زعماء البحرية لأنهما كانا من النكرات قليلة الشأن وهما: بلبان الرشيدى وسنقر الرومى. فلا عليك إذا أهملتهما وأسقطتهما من حسابك، لأن الأدوار الرئيسية فى تلك الملحمة الدرامية ظلت محصورة فى النجوم الثلاثة الأول. أما البطولة النسائية فكانت بلا منازع من نصيب المرأة الحديدية: شجرة الدر.

وانفجر الموقف:

قدمت لك أبطال الدراما التاريخية وقد اتفقت إرادتهم على سلطنة الرجل الطيب الصبور «أليك»، وتزويجه من شجرة الدر، ولم تمض سوى أيام خمسة بالعدد حتى انفجر الموقف .. وانفجر الستار، ونقضوا كلمتهم، وسحبوا الثقة من الملك المعز: عز

الدين أليك التركماني !!.

إيه الحكاية.. !!

قالوا: لقد نسينا أن أسيادنا الأيوبيين- في الشام والأردن واليمن- لا يزالون على قيد الحياة.. وأنهم أصحاب الحق الشرعي.. ولا بد أن نعيد الحق إلى أهله.. ولو لم نفعل لوقعنا في الإثم !!.

كلام حق يراد به باطل.

ولا يصدر إلا من أساتذة في المكيافيلية التي تتلاعب بالألفاظ. وتتمحك بالحق وصولاً إلى الباطل.

كان أمراء البيت الأيوبي موزعين على إمارات الشرق الإسلامي نتيجة الخطأ الذي وقع فيه مؤسس الأسرة وبطل الإسلام، صلاح الدين.. فقد وزع إمبراطورية الإسلام على إخوته وأولاده وأحفاده، فصار كل منهم أميراً على دويلة صغيرة لا قيمة لها.. ولا قيمة له فيها.. وباعدت بينهم الأطماع والأهواء والمصالح والحروب، حتى صاروا لقمة طرية يتلمظ حولها أعداء الإسلام من الغرب والشرق. وصاروا قوة مفككة لا تخيف عدواً ولا ترضى صديقاً، وقد سمعوا بالتطورات الجديدة التي حدثت في مصر بعد وفاة نجم الدين، وكيف آل ملك مصر إلى عبيدهم. فثارت نفوسهم.. وأخذوا يتبارون في القسم بأغلظ الإيمان على إعادة مصر إلى حظيرة البيت الأيوبي.. مع أن أحداً منهم لم يكن يملك القدرة على استعادة شبر..

هل تسامع أمراء مصر المماليك ما يردده الأيوبيون وبما يدور في قصورهم في الشام، فشعروا بالحنين إلى عصر العبودية، والعودة إلى أحضان أسيادهم القدامى؟ وهل كانوا جادين في إعادة مصر إلى النفوذ الأيوبي عندما طرحوا قضية الشرعية!!.

الجواب : محال طبعاً أن يكون هنا قصد المماليك عندما فكروا فى استدعاء أمير أيوبى ويجعلونه ملكا على مصر. ولكن من المؤكد أنهم أرادوا وضع العراقيل أمام ملك مصر الجديد عزالدين أيك الذى اختاروه بملء إرادتهم، لكى يخلعوه بملء إرادتهم. ربما شعروا بالغيرة والحسد من زميلهم الذى صار ملكا فندموا على ما فعلوا ورأوا أنهم أحق بالملك منه .. فبدءوا يضعون الألغام فى طريقه وينكدون عليه حياته حتى يتملكه اليأس ويترك لهم الجمل بما حمل !!.

لقد استقر رأيهم على استدعاء صبى من نسل أيوب اسمه «موسى» كان يعيش فى الشام فى كنف عماته «القطبيات» بنات الأمير قطب حفيد الملك العادل أبى بكر شقيق البطل صلاح الدين.. لقد أرادوا تنغيص حياة الملك المعز أيك، وأذعن الرجل الطيب لحكم القوى لأنه قبل من البداية أن يكون خيال المثائة. وجىء بالأمير الطفل وخلعوا خيال المثائة. وجىء بالأمير، وجعلوه ملكا على مصر إلى جوار الملك المعز أيك.. «ومفيش حد أحسن من حد».. وصارت صورة الحكم فى مصر مثيرة للسخرية.. ملك من المماليك.. وملك من بنى أيوب !!.

حادث نادر:

المؤرخون المحدثون يصفون ذلك الوضع بأنه حادث نادر الوقوع فى تاريخ الأمم والشعوب، وهو إقامة ملكين معا فى وقت واحد !! وهل يستقيم حكم له رأسان !!.

أما المؤرخون القدامى فقد تنبهوا إلى هذه الحقيقة ووضعوا أيديهم على الدوافع التى حدثت بأمر المماليك إلى هذا الوضع الشاذ فيقول ابن واصل فى «مفرج الكروب»: لقد فعل الأمراء بزعامة أقطاي ذلك لأنفتهم وخوفهم من المعز أيك.. فاختاروا أن يقيموا صبيا من بنى أيوب. ويكونوا هم الذين يديرون الملك، ويأكلون الدنيا باسمه.. ويضيف ابن واصل: إن أيك ظل يحكم مصر كأتابك للملك

الأشرف والأتابك هو المربى أو الراعى أو قائد الجيش، فأقيم الملك الأشرف سلطانا.. وخطب له بالديار المصرية، ويكون المعز عز الدين أيك التركمانى أتابكه.. وإليه تقدمة العسكر.

ويقول أبو المحاسن: فأخذوا الأشرف.. وسلطنوه.. وخطبوا له.. وجعلوا الملك أيك التركمانى أتابكه، وتم ذلك، فكان التوقيع يخرج وصورته: رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى.. والملك المعزى.

وقال المقرئى: ظل أيك والأشرف يحكمان مصر، كل منهما بلقب سلطان وقال ابن إياس: فلما تسلطن الأشرف المذكور لم يعزل أيك عن السلطنة بل صار معه مثل الشريك، وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها وضربت السكة على الدنانير باسميهما.

ولا أدرى كيف أصر هؤلاء المؤرخون على تكرار عبارة مفادها أن الأشرف لم يعزل أيك.. وكأن الأشرف كان يستطيع أن يفعل ذلك، ولكنه أحجم تعظفا منه على الملك المعز.. مع أنهم أجمعوا على أن الملك الطفل لم يكن له مع أيك سوى الاسم.. وقد أوضح أبو المحاسن ذلك بقوله: واستمر الحال على ذلك مدة، والمعز أيك هو المسئول بالتدبير، ويعلم على التوقيع، والأشرف المذكور: صورة !!

حركة التاريخ:

كان من المحال أن تستمر صورة الحكم على هذا الشكل الهزلى فى بلد قديم وعريق - مصر - ولم يكن من الممكن أن يجلس على عرشها ملكان أحدهما رجل وإلى جواره طفل.. وكلاهما لا يملك من أمر الحكم شيئا.. لأن الأمر كله كان فى أيدي الأمراء المماليك يحركون الأحداث فى اتجاه واحد هو تحقيق أطماعهم فى الانفراد بالحكم.

ولكن حركة التاريخ لا تجرى- فى كثير من الأحوال- وفق مشيئة الأذكىاء والطامعين، ولقد هبت على الشرق الإسلامى ربح سامة قادمة من أقصى الشرق من بلاد المغول والتتار.. وتناقل الناس أنباء المذابح التى ارتكبها المغول بعد أن خرجوا من مكنهم ودمروا ديار الإسلام فى خوارزم ومضوا فى مسيرتهم المخربة نحو إيران والعراق والشام وصولاً إلى المحطة النهائية: مصر وكان على حاكم مصر- ولو كان فى ضعف أيك - أن يتنبه للخطر الدايم، ويتخذ من الإجراءات الحاسمة ما يتناسب مع خطورة الموقف.

ولا شك أن عز الدين أيك تعلم الكثير خلال السنوات القليلة التى أمضاها فى الحكم، ولاشك أن الأحداث والألعايب والمؤامرات التى كانت تدور من حوله أيقظته من سباته وجعلته يخلع رداء الضعف والهوان ويمارس سلطانه كحاكم مسئول عن وطن يتعرض لخطر عظيم.. لقد أرادوا له أن يكون أداة طيعة صماء، ولكن الأحداث الدايمة حكمت عليه أن يكون أداة فعالة يأمر فيطاع.. فاستجمع أطراف شجاعته لإنهاء هذه التمثيلية السخيفة.. وضرب ضربته القاضية وقبض على الملك الصبى وسجنه فى غياهب القلعة وتغلبت عليه نزعة الإنسانية فلم يخنقه أو يشنقه، كما تقضى بذلك التقاليد المملوكية، وإنما بعث به مرة أخرى إلى عماته القطبيات ليمرح بين أحضانهن ما شاء له المرح واللهو، وأمسك فى يده زمام السلطة، وهو يعلم أن زملاءه الأمراء لن يتركوه فتفتق ذهنه عن حيلة ذكية يثبت بها أركان عرشه فأعلن ولاءه للخليفة العباسى «المستعصم بالله»، وأطلق المنادين فى شوارع مصر والقاهرة يعلنون للناس أن مصر للخليفة المستعصم، وأن الملك المعز هو نائبه فيها. رغم أن الحقيقة كانت تشهد أن خليفة بغداد حى كميته.

إنها حركة ذكية بكل المقاييس.. بل هى انقلاب على الشرعية العسكرية

لحساب الشرعية الدينية، التي جعلت من نظام الخلافة عباءة يتغذى بها كل من يريد أن يضيفى الشرعية على ما تحت يديه من ولايات.. لقد تعلم أيك الكثير من الدهاء وحسن التدبير.. وأراد الفكاك من مراكز القوى التي تطبق على رقبتة وتسعى للتقليل من شأنه تمهيدا للإطاحة به فى الوقت المناسب، وربما أراد أن يكتسب رضاء المصريين عنه من خلال انتسابه إلى شرعية الخلافة لما يعلمه من مكانة الخلافة فى قلوب المصريين، وأثبت السلطان أيك أنه أقوى مما ظنه عليه البعض، فمضى إلى ضرب هؤلاء الذين دبروا له المؤامرات ووضعوا فى طريقة العراقيل، وسارع بالقبض على المشاكسين.

الفصل الثالث

٣

القطر الثالث على عمودين
القطر
القطر
القطر

القط يصير نمرا:

لم يكن فى مقدور الرجل الطيب الصبور عز الدين أيبك، أو لسلاطين المماليك فى مصر، أن يصبر على وقاحة زملائه الذين سلطنوه ثم استخفوا به واستضعفوه، وجاءوا له بصبى من سلاسة بنى أيوب ليكون قسيمه فى الحكم، وشريكه فى السلطة، ورضى أيبك بهذا الوضع الشاذ على أمل أن يثوب زملاؤه إلى رشدهم، ويكفوا عن الماضى فى تلك التمثيلية السخيفة، ولكن سكوته أغراهم بمزيد من الاستهانة به، والسخرية منه، ونسى هؤلاء أن للصبر حدودا، وأن للطيبة نهاية، وأن الرذالة إذا زادت عن حدها فإنها تستفز القط الوديع، وتجعل منه نمرا شرسا، وقد حمل كبر هذه الحملة الاستفزازية الأمير الأرعن فارس الدين أقطاى «الجمدار» فقد ظل ينظر إلى السلطان أيبك وكأنه أحد أتباعه، ويناديه باسمه دون لقب السلطنة تكبرا منه وتحقيرا له، وكان يتعمد التقليل من شأن أيبك ويرفض أن يتلقى منه أمرا..

ركب أقطار متن الغرور.. فتصرف كملك ووضع شعار السلطنة على رأسه، كما يفعل الملوك، ثم أحاط نفسه بزمرة من الأتباع البحرية، أغدق عليهم فدانوا له بالولاء، وأخذوا يعزفون له ألحان النفاق، ولا يعترفون بغيره ملكا حتى أنهم أطلقوا عليه لقب «الملك الجواد فى مقابل «الملك المعز» اللقب الرسمى لسلطان مصر عزالدين أيبك. وانتشى أقطاى بأحاديث النفاق حتى سكر وغاب عن الواقع، ودفعه السكر إلى مزيد من الطغيان، ووصفه بعض معاصريه بأنه «طغى وتجبر» وبغى وتكبر، ووصل من أمره أنه كان إذا ركب من داره إلى القلعة أن يقتل جماعة بأمره وبين يديه، ولا يلتفت إلى المعز ولا غيره، وأمره مطاع فى الحقيرة والكبيرة، لا يرد له مرسوم.

وقال المقرئى عن أصحاب أقطاى بأنهم كانوا يأخذون أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم، فلا يقدر على منعهم أحد.. وأنهم بالغوا فى الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم.

كان هذا شأن أقطاى.. وشأن عصابته من الممالىك البحرية الذين عاثوا فى مصر فسادا.. واستهانوا بكل شىء فى سبىل إرضاء نزعتهم وشراحتهم.. كل ذلك والملك المعز أىك.. صابر.. وسامع.. ومطيع.. لا يملك إلا أن يترقب وىنتظر ما سوف تسفر عنه هذه التركىبة التى صنعتها ظروف الانتقال من عهد إلى عهد.. ومن دولة إلى دولة.. وأعنى الانتقال من حكم الدولة الأيوبىة الذى انهار بوفاة الملك الصالح نجم الدين اىوب، إلى حكم عبىده الممالىك الذين ورثوه دون توصىة منه.. وكل منهم طامع فى الحكم.. راغب فىه.. برغم العهود والاتفاقات التى بصموا عليها بأطراف أصابعهم ثم محوها بحد سىوفهم.

نظر أقطاى حوله فوجد أىك يسكن القلعة تحىط به هالات المجد وأضواء السلطنة، والناس يدعون له فى المساجد، والعملة تضرب باسمه، والشعراء ىمجدونه صدقا أو كذبا، والملوك ىخطبون وده، فتحركت فى نفسه عوامل الحسد والغىرة، وقال له شىطانه إن هذا الذى ىجلس على عرش فرعون.. صنىعك.. أنت الذى وضعت على دست الحكم، وأنت أحق بالملك منه، والإنسان ىكون أدنى إلى الهلاك إذا استمع إلى صوت شىطانه وأهمل صوت عقله وضمىره.. وقد استجاب أقطاى إلى همزات الشىطان فبعث إلى أىك إخطارا ىعلنه فىه أنه قرر مشاركتة فى سكنى القلعة بعد أن اعتزم الزواج من إحدى أمىرات البىة الأيوبى فى الشام.. ولا ىلىق بسلىة الملوك أن تسكن فى مكان أقل من القلعة التى بناها جدها الأكبر البطل صلاح الدين.. أضف إلى هذا أن هذا النسب من أمىرة أىوبىة سىضفى علىه شرفا وسندا شرعىا فى الحكم.

كانت القلعة إذ ذاك المقر الرسمي للحكم، فيها يقيم السلطان ومعه حريمه وإلى جواره حرسه وخدمه وحشمه، فإذا سكنها أقطاي فقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من العرش. وسيحيط نفسه بحرس شديد يمكنه من اغتصاب الملك، وطرد أيبك في طرفة عين. وتلقى السلطان الطلب ولم يطل به التفكير.. واستعاد الحكمة القديمة التي يحفظها كل الملوك والتي تقول إن السيفين لا يجتمعان في جراب واحد. فاتخذ قراره الحاسم بالخلاص من أقطاي، ويستريح من شره وفساده.

هكذا سار أيبك مرغما في طريق الدماء، ولوث يده بدم أقطاي، وكانت هذه الحادثة بداية الطريق الدموي الذي سلكه المماليك طوال عهدهم الذي امتد ثلاثة قرون، وتطلخ بالدماء التي لم تكن لها حرمة عندهم، فصنعوا بذلك تقاليد ارتبطت بتاريخهم، وربما التمسست لهم عذراً إذا راجعت أسلوب تربيتهم، والمناخ الذي عاشوا فيه، والإنسان ابن نشأته الأولى، ونتاج الآداب والعادات التي تلقاها صغيراً. والمماليك منذ نشأتهم الأولى لم يخضعوا لتربية سياسية تُلطف من غلوائهم، ولم يختلطوا في مراحل تكوينهم الفئات الاجتماعية التي تزرع في نفوسهم قيم الأخلاق ونوازع الخير وحسن المعاشرة، لقد تفتحت آذانهم على صهيل الخيول، وقععات السيوف، وضرب السهام والنشاب.. وتنفسوا غبار المعارك فلم يتذوقوا طعم الحياة السوية التي تستمد غذاءها من حنان الأم، وحنان الأب، ودفء الأسرة.. فنشئوا وفي أعماقهم حقد اللقطاء على المجتمع، وتوجس الشر والغدر في أى لحظة من ليل أو نهار، ينام أحدهم وسيفه تحت وسادته كما يحيا قطاع الطرق وزعماء العصابات، يحسبون كل صيحة عليهم، والرابع هو الذي يبادر بقتل أخيه.. ولذلك تغدى أيبك بلحم أقطاي قبل أن يتعشى أقطاي به، وهو نفس ما سيفعله بيبرس مع قطز حتى صارت سنة سيئة التزم بها المماليك في كل عهودهم.

وقبل أن أسرد عليك تفاصيل المذبحة التي أودت برأس أقطاي، لا بأس من أن

أسرد عليك تطورات هذه المرحلة الهامة من تاريخ مصر والتي بدأت مع المماليك منذ انتصارهم على حملة لويس التاسع فى المنصورة.

غزو مصر:

قلت لك إن سلاطين بنى أيوب فى الشام كانوا يتلمظون لاستعادة مصر إلى نفوذهم، واستخلاصها من برائن عبيدهم الذين تملكوها بعد أن قتلوا آخر ثمرة فى الشجرة الأيوبية فى مصر، وهو السلطان الأحمق تورانشاه.. ورغم أن المماليك جلبوا الطفل الأيوبى «موسى» وسلطنوه وخطبوا له فى المساجد.. إلا أن صاحب الشام وحلب، السلطان الناصر يوسف الأيوبى أقسم برأس أجداده أن يغزو مصر ويطرده منها المماليك، وأغراه بذلك أحد أفراد بطانته واسمه شمس الدين لؤلؤ الأمينى، الذى كان يسكب فى أسماع سلطانه عبارات الاستخفاف بحكام مصر، لدرجة أنه كان يصفهم بأنهم «مخانيث» وأنه قادر على استرجاع مصر بمائتى قناع.. يعنى مائتى امرأة!! وصدق السلطان يوسف تهوينات تابعه. وسار على رأس جيشه حتى دخل الحدود المصرية، وخرج العسكر المصرى إليهم، وفر الأمراء المماليك إلى داخل مصر وأخذوا فى طريقهم ينهبون ويسلبون أقوات المصريين.. وارتكبوا معهم كل قبيح، على حد تعبير ابن تغرى بردى، أما سبب هذه النقمة المملوكية، فهو أن المصريين فرحوا عندما سمعوا بهزيمة المماليك. وهللوا لانتصار الأيوبيين، وخطبوا للمليكنهم فى ذلك النهار بالقاهرة ومصر «الفسطاط» والقلعة وفى جميع البلاد. وأيقن كل أحد بزوال دولة المماليك الوليدة، بينما كان السلطان الأيوبى يقضى ليلة فى العباسة «بمحافظة الشرقية» يغتسل ويستحم ويتهيا لدخول القاهرة فى الصباح، ولاح فى المعسكر الأيوبى صدق مقالة «لؤلؤ» حين زعم أن مائتى امرأة قادرات على انتزاع مصر، وأكد من هذا الظن فرار الملك المعز أيبك. ومعه فارس الدين أقطاى على رأس ثلاثمائة فارس فى جماعة من قادة الجيش الأيوبى منهم «لؤلؤ» صاحب العبارة الوقحة، ووقعوا

أسرى فى أيدى الفرقة المصرية، واقترح أحدهم الأبقاء على حياة «لؤلؤ» كرهينة
تصلح للمساومة، ولكن أقطاى صاح: كيف نترك هذا الذى جعلنا مخانيث.. وزعم
أن يأخذ مصر منا بمائتى امرأة «!!» وضربوا عنقه.

وكانت هذه الموقعة الصغيرة بداية تحول الريح فى صالح القوات المصرية،
فاستطاعت أن تمسك زمام المبادرة، وتحيط بالعسكر الأيوبى وتكسر صناديقه وتنهب
أمواله، وتأسر الملك المعظم تورانشاه ابن السلطان يوسف، وابنه «تاج الملوك» وأخذوا
الملك الأشرف صاحب حمص، والملك الزاهر عمه، وجماعه كثيرة من أعيان
حلب، وعاد الجيش المصرى إلى القاهرة بهذا الصيد الثمين، وسناجق الناصر
مقلوبة، وطبولة مشقوقة، ومعهم الخيول والغنائم، وشقوا القاهرة، فلما وصلوا إلى
تربة أستاذهم الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب بين القصرين، أخذوا أسيرهم
الملك إسماعيل الذى كان عدوا لدودا لأستاذهم، ووقفوا به عند التربة وقالوا،
ياخوند، أين عينك ترى عدوك أسيرا بأيدينا.. ثم سحبوه ومضوا به إلى الحبس،
فحبسوه وأولاده، ثم غيبوه إلى «يومنا هذا».. ولم يسمع عنه خبر!!.

ويومنا هذا.. هو اليوم الذى كتب فيه ابن تغرى بردى هذه القصة بعد قرنين من
حدوثها..!!.

وبذلك الانتصار اشتد ساعد الملك المعز أيك. فدخل القاهرة ومعه المماليك
الصالحية الذين مالوا على المصريين قتلا ونهبا، ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم. وفعلا
بهم مالم يفعله الفرنج بالمسلمين «!!» وهكذا حكم على أجددنا أن يدفعوا ثمن
النصر قتلا وسلبا ونهبا وسبيا للحريم.. ومن المؤكد أنهم كانوا سيدفعون نفس الثمن
فى حالة الهزيمة.. إذ عليهم أن يدفعوا فى جميع الأحوال.. أما لماذا تعرضوا لهذه
الحملة الانتقامية، فلأنهم أظهروا شماتتهم فى هزيمة المماليك، وأعلنوا ابتهاجهم

بعودة الأيوبيين.

انتهى الملك المعز أيك من تصفية حسابه مع بنى أيوب، فالتفت لتصفية حسابه مع غريمه فارس الدين أقطاي، وشجعه الانتصار على استئصال هذا الورم الذى يؤرقه ويهدده.. ويحرمه لذىذ المنام فى القلعة.

قلت لك إن أقطاي بعث إلى أيك يخبره بأنه يعتزم مشاركته فى سكنى القلعة لتكون عشا لزوجته الجديدة أنة الملك المظفر تقي الدين محمود سلطان حماة.. بعث أقطاي وفدا من لدنه إلى الشام لإحضار العروس فى موكب أشبه بموكب الأميرة «قطر الندى» ابنة خماروية بن أحمد بن طولون عند زفافها إلى خليفة بغداد.. وخرج موكب العروس من حماة إلى دمشق بتجمل عظيم فى عدة محفات «هوادج» مغطاة بالأطلس وغيره من فاخر الثياب.. وعليها الحلى والجواهر، ثم خرجت بمن معها من دمشق متوجهة إلى الديار المصرية.. وكلما اقترب الموكب من الحدود المصرية ازدادت حيرة لسلطان أيك مع أقطاي، إن منعه من سكنى القلعة حصلت المبيانة الكلية بينهما، واتسعت شقة الصراع بينهما، وإن سمح له بالسكنى قويت شوكته، ورسخت قوته، وتعذر عليه إخراجه منها، وكان على السلطان أن يختار بين الإذعان والبت، فاختر البتر، واستدعى إليه أقرب أعوانه «قطر» وعهد إليه بمهمة الخلاص من أقطاي، وقبل قطر القيام بالمهمة. وسارت خطوات المؤامرة على النحوالتالى:

كان أقطاي قد بعث إلى السلطان أيك يطلب منه أموالا للإنفاق منها على زفافه السعيد، وتظاهر أيك بالموافقة، واستدعاه إلى القلعة كى يأخذ مبتغاه، وبلغ أقطاي الطعم، وركب فى رهط من مماليكه إلى القلعة وهو يمينهم بأجمل السهرات عندما تحين الليلة الموعودة، وما أن اجتاز أقطاي بوابه القلعة حتى أغلقت البوابة. ومنع أعوانه

من دخولها، وتلفت أقطاي فلم يجد أحدا منهم، فأدرك أنه قد وقع فى الفخ، ولكن قبل أن يشهر سيفه، كان سيف قطز قد عاجله بضربة صارمة، فقطع رقبتة وفصل رأسه عن جسده، وارتفعت أصوات الاحتجاج والغضب من جانب أعوان أقطاي، ووصلت إلى أسمع السلطان أليك، فأمر تلميذه قطز بأن يقذف إليهم برأس أقطاي، وفوجئ الجبارون الذى طغوا وبغوا، برأس زعيمهم ملقى بين أيديهم والدماء تنزف منه.. عندئذ فقط أدركوا أن سيف السلطان سيطول رقابهم إن عاجلا أو آجلا.. فاستقر عزمهم على الهروب من مصر كلها، والنجاة بحياتهم إلى الشام، عسى أن يجدوا فيها ملاذاً ومتنفسا وسندا يساعدهم على العودة إلى مصر، والانتقام من أليك وزمرته وعلى رأسهم قطز، فإذا علمت أن «بيبرس» كان على رأس هؤلاء الهاربين الناقمين لأدركت على الفور سر الضغينة التى كانت بين بيبرس وقطز.. وسوف تظل هذه الضغينة مستكنة فى أحشاء بيبرس حتى ينكشف عنها الغطاء يوم عودة قطز من عين جالوت.. وسوف ينقض عليه بيبرس ويفتك به انتقاما لسيدة وولى نعمته أقطاي.

مصالحة ومساومة:

سبق أن ذكرت لك أسماء هؤلاء الأمراء البحرية الفارين من وجه أليك إلى الشام، ولست أرى مدعاة لتكرارها، كذلك لست أرى موجبا لصحبتهم وهم يجوبون فى الإمارات الشامية لتحريض ملوكها الأيوبيين على غزو مصر، وربما وجدوا استجابة عند السلطان يوسف بن أيوب. وربما كانت هذه الاستجابة رغبة منه فى محو العار الذى لحق به عند هزيمته السابقة فى مصر، ولكن المهم أن أليك لم يترك لبيبرس

وزمرته فرصة الانفراد بالسلطان يوسف الأيوبي وإغرائه بمصر، فبعث إليه رسولا من لدنه هو الشيخ نجم الدين البادرائي يوضح له خطورة الاستماع إلى تحريض أولئك المنشقين، ويحذره من تكرار حملته على مصر، ويدعوه إلى المصالحة والمساومة على أن تكون الشام جملة للملك الناصر، وديار مصر للمالِك فساحوا في أنحاء الشام يبحثون عن أمير يقبل مدهم بالسلاح والرجال وتكون مصر طعمة له، وسوف نترك هؤلاء المارقين في تجوالهم بالديار الشامية، ونعود إلى مصر لنرى ما كان من أمر السلطان عز الدين أيك وقد ظهرت أنيابه، ونفش ريشه، وقويت شوكته، فانقض على بقايا الممالِك البحرية الذين لم يتمكنوا من الفرار إلى الشام، فقتل بعضهم وحبس البعض الآخر، وصادر أموالهم ونساءهم وأتباعهم، وانطلق المنادون في شوارع القاهرة يحذرون كل من يأوى في بيته أحدا من البحرية، وسبحان المعز الذي أذل هؤلاء الجبابرة، وجعلهم يتخفون في الكهوف والمغاور، بعد أن طغوا وبغوا، واستباحوا الأعراض والأموال.

وجاء الدور على السلطان الطفل «موسى» الأيوبي، فأخرجه أيك من القلعة، بل أخرجه من مصر كلها، وأعادته إلى أهله، وبذلك بدا أيك وقد تخلص من كل القوى التي كانت تناوئه، وصار الحكم الفرد الذي لا يشاركه ملك مصطنع ولا تنغص عليه حياته شرذمة المتطلعين إلى الحكم، وبدت له مصر لقمة سائغة حلوة المذاق، سهلة الهضم، هادئة الريح، ولم يخطر على باله أن يأتيه الخطر من حيث لا يحتسب.. من زوجته شجرة الدر التي ظلت تترقف.. وترصد نجم زوجها وهو يواصل الصعود إلى قمة السلطة حتى انفرد بها.. وهي راضية طالما لا يشاركها في قلبه أحد.. أما وقد سمح لنفسه بأن يجعل لها في قلبه شريكا، فقد حقت عليه لعنة المرأة، وأن له أن يلقي المصير الذي عجز عن تدبيره تلاميذ الشيطان: بيبرس وقلاوون وسنقر وأضرابهم.. وبدأت شجرة الدر تكيّد لزوجها حتى قضت عليه في مذبحه من أبشع

مذابح التاريخ.. وسبحان الذى وصف كيد الشيطان بأنه كان ضعيفا، بالقياس إلى كيد المرأة الذى وصفه بأنه كان عظيما.

البحث عن نسب:

لماذا فكر أيبك فى الزواج من ابنة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل؟ هل كان يبحث عن نسب شريف يرفع من قدرته والمتواضع كما فكر أقطاي فى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبي، سادة المماليك السابقين؟

الجواب بالنفى، ذلك أن «لؤلؤ» هذا لم يكن ينتمى إلى البيوتات العريقة، بل لم يكن ينتمى إلى العرب أو العروبة، فهو أرمنى نشأ فى أحضان الأتابكة، ودفعت به المناصب العسكرية إلى رتبة «أتابك» فتملك الموصل، فهو بذلك لا يزيد على المماليك نسباً وشرفاً.. إنما الجواب يكمن فى نفس هذه المرأة التى وصفها المؤرخون بأنها كانت شديدة الغيرة، قوية الإرادة، حادة الطبع، ولا ننسى أنها حين تزوجت أيبك، حالت بينه وبين زوجته أو ابنه «على» ومنعته أن يتصل بها ويقدم إليها شيئاً من الواجبات التى فرضها الشرع لتحقيق العدل بين الزوجات، لقد آثرت أن يكون أيبك لها وحدها دون زوجته الأولى، وربما ضاق أيبك ذرعاً بهذا الاستحواذ إلى جوار امرأة مستبدة، وربما نسيت شجرة الدر أن أيبك - الذى كان صنيعتها وعبدها بالأمس قد صار ملكاً له حق الطاعة على رعاياه بمن فيهم زوجته، وأن هذا الملك الذى حسبه ضعيفاً قد تفرد بالسلطان والنفوذ، وقضى على خصومه الذين سلطنوه، ولا يقبل أن ينازعه أحد سلطانه، حتى لو كان هذا الأحد هو زوجته شجرة الدر.

لقد وصل الصراع بينهما إلى نقطة اللاعودة.. وصار حتماً على أحدهما أن يقضى على الآخر.. وكما حدث الصدام بين أيبك وأقطاي فى قضية الصراع على

السلطة، حدث الصدام بين أليك وشجرة الدر فى قضية الصراع على الحب.. وبات الجمع بينهما مستحيلاً.. لأن القطبين المتشابهين متنافران.. وإذا كانت شجرة الدر قد اكتسبت صلابة الرأى بالفطرة، فإن أليك اكتسب نفس الصفة بالممارسة والتجربة والمعاناة.. انها مشكلة الزوجين إذا تساويا فى قوة الإرادة وضخامة الشخصية وحب التسلط، ويرفض أحدهما أن يحنى رأسه للآخر، فتجف ينايع الحب، وتستيقظ نوازع الشر والأثرة والأنانية.. ويبدأ كل منهما يتربص بالآخر ويتحين لحظة الخلاص منه.. وقد رأت شجرة الدر أن تكون نهاية أليك عبرة لكل الأزواج فى كل زمان ومكان وكان لها ما أرادت.

الحل السعيد:

لقد تبوأ شجرة الدر العرش تلقائياً ودون مشورة أو انتظار، فقد ورثت اسم زوجها وأمواله وعبيده، وورثت قبل ذلك عرش مصر.. وارتضى الأمراء المماليك هذا الوضع، ليس لأنهم يحترمون نظام الوراثة، ولكن لأنه الحل الوحيد الذى لا حل سواه، إلا أن يستجلبوا أحد الأمراء الأيوبيين، وهو اقتراح مرفوض مرفوض مرفوض.. وشجرة الدر عندهم - وهى امرأة لاشك فى ذلك - أفضل من هؤلاء العاطلين بالوراثة الذين بددوا ملك جدتهم صلاح الدين، وعجزوا عن السير على دربه فى مواجهة الصليبيين.. لقد عرفوا شجرة الدر عن قرب عندما برعت فى إدارة المعارك، وعرفوا فيها الدهاء عندما نجحت فى إخفاء خبر وفاته حتى لا تنهار الروح المعنوية فى جنوده المقاتلين. وخبروا حصافتها عندما تحملت صفاقة ورذالة ابن زوجها الأحمق، وكانوا يعرفون قبل كل ذلك أن شجرة الدر منهم وإليهم.. تجتمعها بهم وحدة الجنس والعرق والنسب - فهى تركية الأصل كما هم أتراك، وهى بيعت فى سوق النخاسة كما بيعوا، حتى ساقتهم الأقدار إلى بلاط نجم الدين.. لكل هذه الأسباب اتفقت كلمة المماليك - ونادراً ما كانوا يتفقون - على إعلان الطاعة والولاء للملكة الأنثى!!

وسارت الأمور فى طريقها فى انتظار ما تكشف عن الأحداث.. فهى تجتمع بأكابر
الأمراء من أمثال أيبك وأقطاى وبيبرس وقلاوون وتبحث معهم مستجدات الأمور، ثم
تضع توقيعها على المراسيم والقرارات باسم «أم خليل» تخليداً لذكرى الرجل الذى
انجبت له طفلاً مات فى سن البكور، وتعلقت شجرة الدر بهذا الاسم، ربما تأكيداً
لشرعية الوراثة.. وربما خجلاً من ذكر اسمها صريحاً فى بلد محافظ يأبى أن تحكمه
امرأة!!.

كان المصريون ينظرون إلى ما يجرى فى أبراج القلعة وهم يتسمون ويسخرون..
وليس أمامهم من سلاح للتعبير عن رأيهم سوى سلاح التنكيت على المرأة التى
تجلس على عرش الرجال، وأغلب ظنى أن أركان النظام الجديد لم يأبهوا لحملة
التنكيت المصرية بقدر اهتمامهم ببرقية التنكيت التى جاءتهم فجأة من خليفة بغداد
«المستعصم» إذ يسخر منهم ويقول لهم: إذا كانت الرجال قد عدت فى مصر..
فأبغلونا كى نرسل إليكم رجلاً!!.

كانت العبارة بالغة القسوة حتى لو صدرت من خليفة ضعيف لا يملك من الأمر
شيئاً، ولكنه فى النهاية خليفة المسلمين، والذى يحرص الحكام على أن ينالوا بركاته
لتكون غطاءً شرعياً يمكنهم من رقاب العباد، واجتمع الأمراء المماليك ليدرسوا
الموقف بعد هذا التقرير العلنى.. وأخذوا يقلبون الأمر من جميع جوانبه بحثاً عن
حل يخرجهم من هذا المأزق.. ولا أحسب أن هؤلاء المجتمعين حين اجتمعوا للبحث
عن حل، كانوا يقيمون وزناً لتقرير الخليفة بقدر ما وجدوا فيه ثغرة تقربهم من
الأمل المنشود وهو حكم مصر، قدحوا فيه ثغرة تقربهم من الأمل المنشود وهو حكم
مصر، قدحوا زناد فكرهم. فوجدوا أنه من العار أن يخلعوا المرأة التى عاشوا فى كنفها
وكنف زوجها الراحل، وحتى لو تخلوا عن مبادئ الأخلاق وعزلوا سيدتهم فمن

الذى يخلفها؟ إنهم كلهم طامعون.. وكلهم يتلمظون.. وكلهم يخشون أن يختاروا من بينهم رجلا قويا سرعان ما ينقلب عليهم ويطيح بهم «!!» وأخيرا وجدوا الحل السعيد فى أن تتزوج شجرة الدر من أحدهم فىكون لها الحكم الفعلى.. وىكون هذا الزوج الذى ىرضى لنفسه أن فىكون شبعا.. أو خىال مائة.. أو دمية فى يد امرأة تحركه بخىوطها الصلبة!!.

إرادة حدىة:

كانت شجرة الدر- كما قلت لك- امرأة ذات إرادة حدىة، ومضى عليها ثمانون يوما وهى تقوم بواجبات الملك خىر قىام.. ومن الصعب على من ذاق طعم الحكم أن ىنسى حلاوته.. وعسىر علىه أن فىتنازل طواعىة عما فى قبضته، ولذلك قبلت شجرة الدر هذا الحل الذى ىرضى رغبتها كزوجة.. وىرضى طموحها كملكة.. ووقع اختيار الأمراء على «أىبك» لىكون الزوج فعلا.. والحاكم اسما.. ولقد اختاروه لأنه أكبرهم سنا.. وأكثرهم تواضعا.. وأشدهم تدىنا.. ونزل أىبك على إرادة زملائه.. ووقع على وثىقة زواجه من شجرة الدر.. وعلى وثىقة تعىينه سلطانا على مصر.. فكان أول سلطان فىقفز إلى حكم مصر من طبقة الممالىك.

إرادة الشعب:

وسوف أتوقف برهة عند سلطان مصر المملوك، لأسألك- عىزى القارى- ألم فىخطر ببالك وأنا اقصى عليك ما جرى لنا أن تسأل: وأىن شعب مصر من هذه المداولات والمفاوضات والمحادثات التى دارت بىن الممالىك فى شأن من أخص شئون مصر، وهو اختيار حاكمها؟ !! ألم فىفكر هؤلاء الأمراء فى استشارة الشعب أو

الائتناس برأية أو استطلاع مدى رضاه أو عدم رضاه فى كل هذه الحلول؟

وأقول لك بصراحة قد تزعجك ولكنها توقظك: إن شعب مصر فقد إرادته منذ قرون طويلة، قبل أن يظهر المماليك، ولم يعد له رأى أو صوت أو إرادة.. إنما هو آلة صماء يؤمر فيطيع.. تعاقب عليه الدول والعهود وهو ساكن فى موقعه.. يرقب ويشاهد وكأن الأمر لا يعنيه.. تأتى دولة ثم تمضى لتتبعها أخرى.. وهو فى كل ذلك ينظر.. ومنتظر الخلاص.. ويحدوه الأمل فى ظهور الحاكم الصالح الذى يحقق العدل ويخفف من الظلم، والشعب المصرى لا يطمح فى أكثر من ذلك، لأن أكثر من ذلك يتطلب أن تكون لديه القدرة على تنفيذ ما يريد.. وهو لا يملك شيئاً من ذلك.. لأن القرون مضت عليه وهو محروم من نعمة التجديد، ومحرم عليه أن ينحرف فى سلك العسكرية حتى لا يحمل سلاحاً يطعن به قلب ظالميه.

لم يكن لشعب مصر دور فى كل هذا الذى يحدث.. والمظهر الوحيد لإرادته كان مظهراً شكلياً.. هو أن يجتمع القضاة والفقهاء فى حفل مبايعة السلطان الجديد.. وهو مظهر - كما ترى - يستخدم رجال الدين فى الخداع والتضليل، ويوهم الناس أن حاكمهم جاء عن رضا علمائهم، مع أن هؤلاء لم يكن فى مقدورهم أن يمتنعوا عن الحضور أو المعارضة، وإذا ظهر منهم رجل قوى العزيمة مثل العز بن عبد السلام، فقصارى ما يفعله أن يتمسك بأراء شكلية لاتمس صميم المبايعة، ولا تعبر عن إرادة الشعب، فقد رفض مبايعة بيبرس لأنه كان رقيقاً سابقاً ولم يتحرر من الرق، ولكن ما أسرع أن جاء الشهود ليشهدوا أنه أعتق، عندئذ اطمأنت نفس العز بن عبد السلام وركن إلى ظل ظليل، ونسى أن يسأل بيبرس عن حقه الشرعى فى أن يكون سلطاناً على مصر دون إرادة أهلها!! ونسبوا إلى الظاهر بيبرس

قوله عندما سمع نبأ وفاة العز: ما استقر ملكي إلا الآن !! وما أحسب هذه العبارة إلا من اختلاق الرواة، لأن ملك بيبرس لم يعتمد على تأييد العز أو عدم تأييده، وإنما استند إلى قوة السيف التي فاقت قوة الشرع. واعتمد على العضلات التي كانت أقوى من إرادة الشعب.

الفصل الرابع

٤

الكتاب الثاني عشر
على عهد
عبد
القادر
الجزيري
طريق القباقيب

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

صريع القباقيب:

قلت لك إن الصدام بين أول ملوك مصر المماليك السلطان المعز (عز الدين أيك) وزوجته الملكة السابقة (شجرة الدر) وصل إلى نقطة اللاعودة، ولم يعد في إمكان أحدهما أن يتزحزح عن عناده، ويحني رأسه للعاصفة كي تستأنف سفينة الزوجية مسيرتها التي استمرت سبع سنين، وركب كل منهما رأسه، وشحذ سلاحه، وصار حتما على أى منهما أن يختفى ليخلى المسرح للآخر.. أما أيك فقد آثر السلامة.. ولم يلجأ إلى ما كان يلجأ إليه ملوك ذلك الزمان، فيدس لها السم في العسل، أو يغرى أحد غلمانها فيطعنها بخنجر، وظن أن ابتعاده عن القصر فيه الكفاية، فغادر قصره بالقلعة وحمل ملابسه وهبط إلى حدائق باب اللوق عساه يجد فيها شيئا من السلوى والعزاء وراحة البال، ويتعد عن المنغصات التي قلبت حياته جحيما، وكفاه ما كانت تصبه في أذنه من عبارات المن والإيذاء حين كانت تقول له: لولا أنا.. ما وصلت أنت إلى السلطة.

ولم يكن هذا الهروب ليرضى غرور شجرة الدر، ولم يكن ليطفى نيران الغيرة المتأججة في صدرها، بل وجدت فيه تأكيدا للشائعات التي ملأت أجواء البلاد بأن السلطان قد تملكه الضجر والسأم من زوجته المتسلطة وأنه يعتزم الزواج من ابنة ملك الموصل، فهو ليس هروب الطائر من سهام الصائد، ولكن هروب الصقر الذي يستعد للانقضاض، ويهيئ العش السعيد لزواج جديد.

كيف أقدم أيك على هذه الخطوة الجريئة وهو أعرف الناس بأخلاق زوجته شجرة الدر، وما جبلت عليه من تسلط واستبداد وغيره متأججة، حتى أنها حالت بينه وبين زوجته الأولى وأم ابنه (على) فاستجاب لإرادتها صاغرا مدحورا!! وهل

بلغت به الجرأة أن يتحدى هذه المرأة الحديدية في أعز ما تملك وهو كبرياؤها
وصلفها (!!) ألم يخطر على باله أن تضمر له الشر، وتكيد له كيدا يجعله أمثولة
لكل زوج خئون(!!) .

هذا الرجل:

الذى ثبت أمام المحن والخطوب، وتمرس على معاملة أعتى الرجال من أمثال
أقطاي وزمرته، كيف غاب عن فطنته أن يتوقع الشر من هذه المرأة التى فاقت الرجال
فى العقل والتدبير! لقد قال له أحد المنجمين ذات يوم إنه سيلقى حتفه على يد
امرأة- كما يروى المقرئى فى السلوك، فمن تكون غير شجرة الدر قادرة على
الفتك به !! أم أنه أخذ التحذير مأخذ الاستخفاف عملا بالقول المأثور: كذب
المنجمون ولو صدقوا (!!) أن أن القصة من نسج خيال الرواة تمشيا مع طريقتهم فى
حبك القصص إرضاء لمزاج العوام !! ولكن المقرئى يورد قصة أخرى تؤكد عزم
شجرة الدر على قتل زوجها قبل تنفيذ الجريمة بزمن.. أى أنها لم تكن وليدة
اللحظة.. وإنما سبقها تفكير وتدبير وإصرار وترصد..

والقصة تقول إن شجرة الدر أو فدت أحد خدمها- وهو نصر العزيزى- إلى
صاحب الشام الملك الأيوبى الناصر يوسف، ومعه هدية معتبرة، ومع الهدية رسالة
شفهية تبلغه فيه أنها اعتزمت قتل زوجها الملك عز الدين أيك، وتعرض على الناصر
الزواج بها. والشم: عرش مصر (!!) أى أنها أرادت أن تعيد قصتها مع أيك
فتستدرج الناصر إلى مصر وتجعله ملكا وزوجا، ملكا يرث عرش آبائه.. وزوجا
للمرأة التى كانت ذات يوم زوجة لآخر ملوك بنى أيوب فى مصر، ولكن الناصر
أوجس فى نفسه خيفة من هذه السيدة التى برعت فى العبث بالملوك، ودارت رأسها
بخمر الحكم فلم تستطع أن تفيق منها، وإذا كانت حياتها مع أيك قد انتهت

بالفشل ونية الفتك، فمن الذى يضمن له أن يفلت من برائتها الجبارة !! وكان جوابه أن أعرض عنها ونأى بجانبه.

ويبدو أن هذا العرض الملكى صار مشاعا بين ملوك الشام حتى وصل إلى مسامع الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ووالد العروس التى خطبها إليك، فبعث إلى الملك الناصر يحذره من الاستجابة لعروض شجرة الدر. ولاشك أنه فعل ذلك خرفا على فشل صفقة زواج ابنته من سلطان مصر.

مقدمات الجريمة:

بل إن هناك ما هو أكثر دلالة على شيوع نية شجرة الدر قتل إليك، وهناك روايات كثيرة نقلها إلينا المؤرخون القدامى تؤكد أن شجرة الدر أفصحت عن عزمها على تنفيذ جريمتها، وبدأت تعقد الصفقات مع كافة الأطراف التى سوف تستفيد من قتله، من ذلك مايرويه أبو المحاسن فى (المنهل الصافى) أن شجرة الدر استدعت صفى الدين إبراهيم بن مرزوق- الكاتب - ذا المنصب الجليل، وكان لهذا الرجل وجهته عند الملوك، فاستشارته فى الفتك بالمعز إليك، ووعدته أن يكون هو الوزير، فأنكر عليها ذلك، ونهاها، فلم تصغ إليه، ومضت تبحث عن غيره، فوجدت بغيتها فى الطواشى محسن الجوجوى الصالحى، وعرفته بما عزمت عليه، ووعدته وعدا جميلا إن قتله.

أما المقرئى فيروى قصة غريبة عن مقدمات جريمة الاغتيال، وهى أن الملك المعز كان قد قبض على جماعة من الأمراء المماليك، وأودعهم سجن القلعة، وأثناء تجوالهم تحت شبك الغرفة التى تقيم فيها شجرة الدر، صاح أحدهم كى تسمعه وهى فى خدرها، وقال لها بالتركى: «أنا المملوك أيدكين بشمقدار. والله ياخوندا.. ما عملنا ذنبا يوجب مسكنا.. إلا أن السلطان لما بعث يخطب بنت ملك الموصل،

ماهان علينا لأجلك ، فنحن تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم (يقصد الملك الصالح نجم الدين) فلما عاتبناه تغير علينا، وفعل بنا ما ترين، فأومأت إليه شجرة الدر بمنديل، يعنى «قد سمعت كلامك». فلما نزلوا بهم إلى الجب، قال أيدكين: «إن كان قد حبسنا.. فقد قتلناه، وبمعناها بالبلدى أننا حفرنا له قبره. وأن شجرة الدر هى التى ستدفع به إلى اللحد.

ونسطيع أن نستخلص من هذه الروايات أن جريمة اغتيال أليك لم تعد سرا.. وإنما سارت بها الركبان فى مصر والشام، وبرغم انفضاح نوايا شجرة الدر، فقد ظل زوجها الرجل الطيب ماضيا فى جهالته، رافضا أن يمد إليها يده بسوء.. راضيا بعزلته فى حدائق باب اللوق، التى كانت فى تلك الأيام تقع على حافة النيل قبل أن يغير مجراه نحو الغرب. بينما كانت زوجته تدبر له أمرا.. لقد نظرت إلى نفسها وهى تعيش وحيدة بين جدران القصور بالقلعة.. فلا تجد سوى الخواء والصمت، وتفترسها الوحدة والغيرة ويأكلها الحقد، لقد تحولت القلعة فى ناظرها إلى سجن رهيب تنعق فيه البوم، وتسرح الخفافيش، واسترجعت شريط حياتها منذ كانت سيدة مصر الأولى فى كنف زوجها الملك الأيوبى، ومنذ صارت ملكة يتردد اسمها على المنابر بوصفها «ذات الستر الجليل.. الست أم خليل» ومنذ رضيت الزواج من مملوكها أليك ليكون سترا لها من ألسنة الناس، وعباءة تتخفى فيها وفى يدها مقاليد الأمور.

لقد مضى كل ذلك أدراج الرياح.. وزالت السلطة، ولم يبق لها من هذا الهيلمان سوى الزوج الذى يملأ حياتها دفئا وبهجة بعد أن فقدت ولدها الوحيد (خليل).. وهاهو القدر يرضن عليها بعطف الزوج بعد أن حرمها نعمة الأمومة، وهاهو الزوج يوشك أن يفلت من يدها ليعيش فى أحضان امرأة مستوردة من العراق!! فماذا تبقى لها بعد ضياع العرش.. وزوال المجد.. وهروب الزوج!! فكانت كالرابع الذى خسر

كل شيء وشمس العمر توشك أن تغيب.. ورحيق الأنوثة يوشك أن يجف.. ولم تجد في نفسها سوى بقايا امرأة يصعب عليها أن تغرى رجلا بشراء الحطام..

لقد آن الأوان كي تضرب ضربتها، وتنتقم لأنوثتها، وتنفذ حكم الإعدام في زوجها بعد أن عقدت له محاكمة سرية داخل نفسها فانتهت بإدانتها، ولكن كيف السبيل إليه وهو بعيد هائم. شريد في حدائق باب اللوق، وبينها وبينه بعد المشرقين.. هنا لجأت شجرة الدر إلى سلاحها الأثير الذي خاضت به المعارك، وأذلت أعناق الرجال.. سلاح السياسة والكياسة والتدبير.. عرفت أن قاضي القضاة الشيخ تاج الدين بن بنت الأعز، يتمتع بمكانة مرموقة في قلب سيدها، وله عنده كلمة مسموعة، فبعثت إليه، وعرضت عليه حالها وما انتهى إليه مصيرها مع زوجها، وكيف أنها تشعر بالندم على ما فرط منها في حق زوجها، وتبدي استعدادها لأن تكون له الزوجة الوفية، وتستأنف ما كان بينهما في الليالي الخوالي.

العش القديم :

ولم يكن أمام القاضي الطيب - ابن بنت الأعز - إلا أن يصدق شجرة الدر فيما قالت، فليس من شأن مثله أن يختبر النوايا، ونقل إلى أيبك استعطافات زوجته المدلهة في حبه، ورغبتها في عودته إلى عشه القديم، وصدق المسكين الرسالة، فجمع متاعه، وصعد إلى القلعة وهو لا يدري أنه يمضى إلى حتفه بظلمه كما يقول المثل العربي.. ولقد تعددت روايات المؤرخين حول الطريقة التي تمت بها هذه الجريمة التي صارت من أبشع جرائم الاغتيال في التاريخ.

يقول أبو المحاسن في (النجوم الزاهرة) : فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من شهر ربيع الأول (عام ٦٥٥هـ) لعب المعز بالكرة ومن معه (في باب اللوق) ثم صعد إلى القلعة آخر النهار، وأتى الحمام ليغتسل، فلما قلع ثيابه وثب عليه سنجر

الجوهري والخدم فرموه وخنقوه.. وقيل فى قتله وجه آخر: وهو أن شجرة الدر لما غات، رتبت للمعز سنجر الجوهري مملوك الفارس (أقطاي) فدخل عليه الحمام، ولكمه ورماه، وألزم الخدام معاونته، وبقيت هى تضربه بالقبقات وهو يستغيث ويتضرع إليها إلى أن مات، ثم طلبت صفى الدين بن مرزوق على لسان المعز فركب حماره وبادر، وكانت عادته ركوب الحمير، فدخل عليها فرآها وهى جالسة و(المعز) بين يديها ميت، فاستشارته فقال: ما أعرف، وكان الأمير (أيد غدى) العزيز معتقلا، فأحضرتة، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فامتنع، ثم سيرت تلك الليلة إصبع (المعز) وخاتمة إلى الأمير عز الدين الحلبي الكبير، وسألته أن يقوم بالأمر، فلم يوافق أيضا، واستمر الحال تلك الليلة، فلما كان باكر نهار الأربعاء، ركب الأمراء إلى الخدمة كالعادة، وتخيرت شجرة الدر فيما تفعل، فأرسلت إلى (على) ابن المعز تقول له نيابة عن أبيه أن ينزل إلى البحر (النيل) فى جمع من الأمراء لإصلاح الشوانى المجهزة إلى دمياط، ففعل.

وإليك رواية المقرئى فى (السلوك لمعرفة دول الملوك).

ركب الملك المعز من الميدان بأرض اللوق، وصعد إلى قلعة الجبل آخر النهار ودخل إلى الحمام ليلا، فأغلق عليه الباب محسن الجوجوى، وغلام كان عنده شديد القوة، ومعهما جماعة، وقتلوه، بأن اخذ بعضهم بأنثييه (يعنى خصيتيه) وبعضهم بخناقه، فاستغاث المعز بشجرة الدر، فقالت اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجوى فى القول، وقال لها: متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك، ثم قتلوه، وبعثت شجرة الدر فى تلك الليلة إصبع المعز وخاتمة إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبي الكبير، وقالت له: قم بالأمر، فلم يجسر، وأشيع أن المعز مات فجأة فى الليل، وأقاموا الصائح فى القلعة، فلم تصدق مماليكه بذلك، وقام الأمير علم الدين سنجر الغتمى - وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم - وبادر هو والمماليك إلى الدور

السلطانية، وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم، فأقروا بما جرى، وعند ذلك فبضوا على شجرة الدر، ومحسن الجوجوى، وناصر الدين حلاوة، وصدر الباز، وفر العزيزى إلى الشام، فأراد ممالك المعز قتل شجرة الدر، فحماها المماليك الصالحية، ونقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة.

أما ابن إياس فى (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) فقد آثر أن يعرض لنا مقدمات الجريمة وتطوراتها، فىحكىها ضمن رصده لأهم أحداث عام ٦٥٤هـ أى السنة السابقة على الجريمة: ففىها دبت عقارب الفتن بين الملك المعز، وبين زوجته شجرة الدر، فتغيرت عليه، وتغير عليها، لأنها كانت تمن عليه فى كل وقت وتقول له: لو لا أنا ما وصلت أنت إلى السلطة، وكانت ألزمته بطلاق زوجته أم ولده الأمير (على)، فطلقها، وكانت شجرة الدر تركية الجنس، شديدة الغيرة، وبلغها أن الملك المعز أرسل يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ، صاحب الموصل، فصار بينهما وحشة من كل وجه، وكانت شجرة الدر تظن أن هذا الأمر الذى هم فيه (يعنى السلطة) يتم لها لو راح أهلك، وهذا عين الغلط، ولكن النساء ناقصات عقول، وقد طاشت بما وقع لها، كما قيل:

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول

فلما تزايد الزمر، غضب منها الملك المعز، ونزل إلى مناظر اللوق، فأقام بها أياما وهو غضبان من شجرة الدر، وكان معها فى غاية الضحك، فأرسلت إليه قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، فتلطف به حتى طلع إلى القلعة، وكانت شجرة الدر قد أضمرت له سوء، فلما طلع، لاقته، وقبلت يده على غير العادة، فظن أهلك أن ذلك على وجه الرضا منها، فكان كما قيل فى المعنى:

ألقى العدو بوجه لا قطوب به
يكاد يقطر من ماء البشاشات
فأدرب الناس من يلقي أعاديته
فى جسم حقد وثوب من مودات

فلما كان ليلة الأربعاء الخامس والعشرين ربيع الأول سنة خمس وخمسين
وستمائة، نذبت له شجرة الدر خمسة من الخدام الروم، وقالت لهم: «إذا دخل
الحمام، اقتلوه بها» فلما نام معها، ودخل الحمام، وقد تراضيا، فبينما هما فى
الحمام، دخل عليهما هؤلاء الخدام، وبأيديهم سيوف مسلولة، فلما عاينهم الملك
المعز، استجار بشجرة الدر، وقبل يدها، فقالت للخدام: «اتركه»، فأغلظ عليها بعض
الخدام وقال لها: «متى تركناه لا يبقى عليك ولا علينا» فقتلوه فى الحمام خنقا، وقيل
شدوا «محاشمه» بوتر حتى مات، فلما مات حملوه وأخرجوه أغمى عليه من
الحمام، فأرقدوه على فراش. فلما أصبح الصباح أشيع بين الناس موته، فركب ابنه
الأمير على والأمراء المعزية، وطلعوا إلى القلعة. فغسلوا الملك المعز، وكفنوه، وصلوا
عليه، ودفنوه بالقرافة الصغرى.

تقرير صحفى:

ماذا تستنتج من هذا التقرير الصحفى الذى كتبه لنا المؤرخ المصرى الشهير (ابن
إياس) بطريقة أكثر تفصيلا، وأكثر ثراء فى المعانى والتحليل من غيره؟؟
ألم يستوقف نظرك ذلك المشهد الهزلى.. مشهد أيبك وهو يعود إلى بيت الزوجية
بنفس راضية، ونية سليمة وقلب مفتوح، وقد لاقته شجرة الدر (وقبلت يده على
غير العادة) بينما قلبها يغلى حقا وغلا!! وكأنها تخفى وراء ظهرها السكين التى

سوف تغرسها فى قلبه بعد قليل !!

ماذا تقول عن تلك المرأة التى مدت لزوجها حبل الرضا.. وقدمت له كل ما تملك من وسائل الإغراء.. حتى نام معها.. ثم دخل الحمام.. ووقد تراضيا.. فإذا بهذه الأنثى التى كانت فى مخدعها تذوب رقة وعذوبة، تتحول إلى نمر مفترس بعد أن نزعَت من قلبها كل معانى الرحمة والإنسانية. ولا يقلل من وحشيتها ما يقال إنها رقت لحاله، وأمرت غلمانها بالكف عن قتله.. فقد صدقوا حين قالوا لها إنها لن تنجو إذا نجأ.. وكذبت حين قالت لهم «اتركوه» فليس من طبيعة امرأة فطرت على التجبر والتسلط أن تتراجع عن صراخ الضحية.. وإنما تملئ عليها طبيعتها أن تمضى فى جريمتها إلى نهايتها، وليس من شأن ذوى القلوب المتحجرة أن يتأثروا بالضعف الإنسانى، بل يرون فى الاستجابة ضعفا لا يليق بهم وليس أدل على تحجر قلب شجرة الدر أنها لما أدركت نهاية مصيرها جمعت كل ما تملك من حلى وجواهر وآلى ووضعتها فى هاون من الحديد وانهالت عليها تحطيمًا حتى سحقته.. فعلت ذلك حتى لا تترك جواهرها طعمة سهلة لغريمته وضرته أم على - وكأنها أبت عليها نفسها أن تذهب إلى قبرها وهى مطهرة من شهوة الانتقام.. ولعنة الحقد.. وظلت إلى آخر نفس من حياتها وهى تتقلب على جمر الكبرياء والصلف، ولم تهدأ روحها المتأججة إلا بعد أن صارت رمادا.

العدل الإلهى:

تفرض علينا سنن العدل الإلهى أن نذكر مصير شجرة الدر، وهى سنن مطلقة فى عدالتها لاتعرف المجاملة أو المحسوبية، وتقضى بأن يكون الجزاء من جنس العمل.. وقد فتكت شجرة الدر بزوجها غيلة وغدرا.. ونفذت فيه قرارها بطريقة بلغت حد الإسفاف فى الإهانة والتحقير.. وأعنى به الضرب بالقباقيب.. فحق عليها

أن تشرب من نفس المصير.. وإلا.. اختل نظام العدالة، وهانت أرواح الناس على الناس.. وتحول المجتمع البشرى إلى غابة تحكمها الغرائز الحيوانية.. والنزعات العدوانية.

ولقد وقفت بك مع شجرة الدر وهي حبيسة البرج الأحمر بالقلعة حتى إذا فرغوا من مراسم دفن السلطان القتيل، التفتوا إليها ليقترضوا منها وكانت تلك أول مهام السلطان الجديد الملك المنصور (على) ثانى ملوك الترك المماليك على مصر.. كان عليه أن يقوم بمهمة القصاص من جهتين: من جهة كونه سلطانا من واجبه أن يثأر للسلطان القتيل، ومن جهة كونه وليا لدم أبيه المهدر.. وذهب السلطان إلى البرج الأحمر، وأخرج شجرة الدر من مكنها، وسلمها إلى أمه الثكلى لتشفى منها غليلها.. وتشفى معها الحساب القديم.. يوم سلبت منها زوجها.. ويوم منعته من الاتصال بها.. ويوم أرغمته على طلاقها، فأذعن.. ويوم فتكت به وهو بين يديها عار من الثياب.. والسلطة والمجد والهيلمان.

وقفت شجرة الدر بين يدي غريمتها، وما أظنها جفلت أو ضعفت أو استرحمت.. وما أظنها إلا تعجلت تنفيذ إعدامها، حتى لا تترك لضرتها السابقة فرصة التشفى.. فكان لها ما أرادت.. فتكالب عليها الخدم والجواري ونزعوا عنها ثيابها إلا سراويل أخفت عورتها.. وانهاled عليها الجميع ضربا بالقباقيب.. وهي لا تصرخ.. ولا تتوجع.. ولا تتوسل.. وإنما تنظر إلى الدماء وهي تتفجر من رأسها ومن كل مكان فى جسمها.. وربما طافت بخاطرها حالة زوجها وهو يتعرض لنفس الموقف.. ويئن تحت الضربات الموجهة.. ويستغيث بها متوسلا ومقبلا ومسترحما.. فأرادت أن تثبت لقاتليها أنها أشد بأسا، وأقوى ناصرا.. وأكثر تحملا من سلطان مصر..

وما هي إلا ساعة، وفاضت روحها، وسكن الجسد، وهدأت النفس التي صنعت من صهر الجبال.. وتوقف القلب الذي صب من فولاذ مصهور.. عندئذ سحبها الخدم من رجلها.. ومضوا بها سحلا في ردهات القعلة، ثم ألقوا بجثتها خلف الأسوار. إلى الهاوية السحيقة.. وبقيت رمتها عارية إلا من ذلك اللباس الذي يستر عورتها.. ومرت الأيام وسلطانه مصر ملقاة في العراء تحت وهج الشمس الحارقة حتى فاحت رائحتها، وتجمعت حولها النسور والضباع، ينهشون من لحمها مايسد رمقهم.. أما بعض السوقة، فقد أغراهم لباسها فنزعوه ليسلبوا منه دبوسا من من الجواهر والحلى.. وتعفنت جثتها حتى ضاق بها الناس، فتعطف بعض أولاد الحلال وجمعوا ما تبقى من رمتها ووضعوه في قفة، ومضوا به إلى التربة التي أقامتها لنفسها بالقرب من ضريح السيدة نفيسة.. فوضعوا الأشلاء في التربة ثم أهالوا عليها التراب!!

تلك هي نهاية المرأة التي جلست على عرش فرعون.. وتردد اسمها على المنابر، وخطب ودها الملوك والأمراء والفرسان.. ولكنها لم تنس في أى لحظة أنها امرأة.. ولكنها ليست ككل النساء.. ولقيت حتفها بطريقة تأنف منها كل النساء .

الفصل الخامس

٥

قاهر التتار

قاهر التتار:

انتهى الصراع بين السلطان عز الدين أيبك وزوجته شجرة الدر بموتهما، بعد أن فتك كل منهما بالآخر ضرباً بالقباقيب، وبات عرش مصر خاليا ينتظر من يشغله، كان هناك أكثر من أمير يرى في نفسه الجدارة، ولكنهم تريثوا .. حتى تنتهى فترة الحداد.. وتم تصفية الحساب مع الذين شاركوا شجرة الدر فى مؤامرة اغتيال السلطان.. وتركوا هذه المهمة لابنه (على) فجعلوه سلطانا رغم عدم إيمانهم بمبدأ الوراثة فى الحكم، ورغم اقتناعهم بأن الصبى الوريث يفتقر إلى الحد الأدنى من القدرات الشخصية التى تؤهله للحكم.. وحسبك أن تعرف عن هذا الصبى، الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، أنه كان خفيف العقل، كثير العبث، يقضى نهاره فى ركوب الحمير متجولا بها فى حواري القلعة ومن حوله شذمة من أقرانه يتضحكون ويتصايحون. ويقضى مساءه فى سباق الحمام، ومناطحة الكباش، ومناقرة الديوك.. فإذا جن الليل ألقى بنفسه بين أيدي الجوارى يسكبن فى أذنيه حواديت أمنا الغولة والشاطر حسن (!!).

لم يكن هذا الغلام الدلوعة يصلح لإدارة شئون ضيعة، فما بالك بدولة يسيطر عليها أمراء ذوو أنياب زرقاء. ولكنهم اختاروه عمدا حتى ييؤء بإثم الانتقام من قتله أبيه، وقام (على) أو السلطان المنصور كما أطلق عليه، بالمهمة كما ينبغى له، فقبض على محسن الجوجرى الذى قاد فرقة إعدام السلطان داخل الحمام، وصلبه على باب القلعة، ثم قبض على أربعين شخصا من الطواشية الذين كان لهم ضلع فى المؤامرة، وأمر بإعدامهم «توسيطا».. والتوسيط - حماك الله من كل سوء- طريقة من طرق الإعدام جلبها المماليك معهم من البلاد التركية، ولم يكن لمصر بها سابق عهد، وهى تتم على مراحل تبدأ بتعرية الشخص من الثياب، ثم يربط بالمسامير إلى خشبتين على شكل صليب، ثم يأتى السياف فيضربه ضربة قوية تحت السرة تقسم

مجسمه إلى نصفين من وسطه حتى تنفرط أوعاؤه .

وتمت عملية توسيط الأربعين متهما كلهم تحت أسوار القعلة وعلى مرأى من الست (أم على) كى تشفى غليلها من قتلة زوجها، بعد أن فرغت من قتل غريمتها وضررتها شجرة الدر.

بعد انتهاء مذبحة الانتقام:

وجد الأمراء المماليك أن تصريف أمور الدولة يقتضى وجود أمير متمرس وخبير إلى جانب السلطان الغلام، فوقع اختيارهم على الأمير (قطز) ليقوم بوظيفة الأتابك.. وقام اختيارهم على عدة اعتبارات أهمها أن قطز كان أقرب المماليك إلى قلب سيده السلطان أليك، فهو الذى اشتراه ورباه وجعل منه فارسا وأميرا.. وهو الذى شارك سيده فى مؤامرة اغتيال الأمير المشاغب (أقطاى).. فكان للسلطان التدبير.. ولقطز التنفيذ.. لكل هذا اختاروه وصيا وقيما ومدبرا للسلطان الصغير. وقبل قطز القيام بالمهمة وفاء لسيدة، وحماية لابن سيده من عسف الدخلاء.

الأمراء البحرية:

قلت لك فى حديث سابق إن الأمراء البحرية بزعامة (بيبرس) هجوا من مصر هاربين بجلودهم بعد مصرع زعيمهم (أقطاى) وأخذوا يسيحون فى الديار الشامية، لتحريض الأمراء الأيوبيين على غزو مصر وتخليصها من حكم أليك.. وإعادتها إلى النفوذ الأيوبي.. كانوا يتصرفون كلاجئين موتورين فقدوا روح الولاء لمصر، وما أن سمعوا بنيا مقتل أليك، حتى هرعوا إلى الملك (المغيث) صاحب حصن الكرك، وأطمعوه فى حكم مصر قائلين: هذا ملك أليك وجدك وعمك فانهض ولا تتوان (!!) واستجاب المغيث لتحريضهم، وسار بصحبتهم على رأس جيشه قاصدا الديار المصرية، واجتاز غزة فلما وصل إلى الصالحية وجد فى انتظاره جيش مصر، وكانت

علقة ساخنة انتهت بهزيمته وفراره إلى الكرك، وعاد الجيش المصرى إلى القاهرة ومعه صيد ثمين من أسرى المماليك يعيننا منهم سيف الدين قلاوون وقد عفا عنه قطز، وسيصبح له شأن عظيم فى تاريخ مصر، أما بيبرس، المحرض الأول، فقد أفلت من المذبحة، وعاد مع فلول الجيش المهزوم، لا ليهدأ ويأوى إلى ركن ظليل، ولكن ليعاود تحريض الملك المغيـث على مهاجمة مصر مرة ثانية، ويبدو أن فكرة الاستيلاء على مصر كانت متغلغلة فى مخ المغيـث، حتى أنه استجاب لضغوط بيبرس وعاود الكرة، وعند الصالحية وقع له ما هو أشد وأنكى مما وقع له فى الأولى، كان قطز فى انتظاره، وانكسر المغيـث كسرة شنيعة، وعاد قطز إلى القاهرة، تحيط به أعلام النصر وفى ركابه صيد جديد من أسرى المماليك، وفى هذه المرة تخلى قطز عن حلمه وأمر بضرب أعناقهم، وحملت رءوسهم على السهام، وطيف بها فى شوارع القاهرة ثم علقت على باب زويلة. أما المغيـث فقد عاد إلى الكرك يجر أذيال الفشل، وفى ركابه بيبرس.. ثم تضاعف حجم الهزيمة عندما انقض عليهم قطاع الطرق فسلبوهم ما بقى معهم من متاع وسلاح.

هجمة التتار:

وبينما كانت هذه المعارك الصغيرة تدور بين أمراء البيت الأيوبي فى الشام، وأمراء البيت المملوكى فى مصر، تواترت الأنباء بسقوط بغداد تحت معاول التتار، ومقتل الخليفة العباسى المستعصم بالله.. وما لحق ببغداد من خراب ودمار على أيدى الوحوش المغولية، ودب الذعر فى أنحاء الشام ومصر لما سمعوه عن فظائع المغول، حتى صار كل إنسان يبحث عن النجاة بنفسه من الهلاك القادم، واستقر فى وجدان الناس أن الموجة التتارية الكاسحة التى اجتازت الفرات لا تلبث أن تصل الشام وبعدها مصر.. وأن مصير البلدين سيكون نفس مصير العراق وإيران، إن لم يجد المغول من يردعهم، واستقبل قطز وفدا سوريا يحمل رسالة من السلطان يوسف صاحب دمشق،

كانت أشبه باستغاثة يستنجد فيها بسلطان مصر لإنقاذ الشام.

هنا.. يتجلى الدور التاريخي للأمير الشجاع قطز. فقد أدرك بحسه العسكري والسياسي أن المغول لن يتوقفوا عن زحفهم، وأن الأمر أكبر من قدرة أمراء الشام ومصر بعد أن تغلبت على الجميع روح اليأس والاستسلام، وأن مصر هي الصخرة التي يجب أن تتحطم عليها أسطورة الجيش الذي لا يقهر (!!) ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وعلى رأس الدولة غلام أهوج لا يعرف من أمور الدينا غير ركوب الحمير ومناقرة الديوك (!!) ومن حوله أمراء متخاذلون (!!).

دعا قطز إلى مجلس حرب بالقلعة حضره كبار القادة، رحرص قطز على أن يحضر المجلس كوكبة من العلماء على رأسهم سلطانهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وعرض قطز عليهم الموقف بأمانة. وكيف أن مصير الإسلام والمسلمين أصبح معلقا على قدرة مصر على صد التتار، وأن الجهاد يحتاج إلى مال ورجال وسلاح.. وتكلم الشيخ عز الدين عن مشروعية أخذ أموالا لعامة للمجهود الحربي فقال: إذ لم يبق في بيت المال شيء، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب. ولم يبق للجندى إلا فرسه التي يركبها، ساغ أخذ شيء من أموال الناس في دفع الأعداء.. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم.

وارتفع الحوار إلى مستوى الموقف العصيب الذي تمر به البلاد، ووجدها قطز فرصة سانحة للمصارحة، وقال متسائلا: «كيف يمكن لمصر أن تقوم بهذا الدور وعلى رأسها سلطان صغير لا يعرف تدبير الأمور (!!) إن الموقف يستلزم أن يقوم بأمر الدولة سلطان شهم قادر على مقاتلة هذا العدو الشرس عندئذ قال الجميع: ليس لها غيرك.

كان هذا الرد أشبه بمبايعة جماعية من قادة الجيش وعلماء الدين لقطز كى يتولى الأمر، وتلقى قطز الضوء الأخضر فبادر بالقبض على السلطان الغلام وأمه وأودعهما سجن القلعة إلى حين البت فى مصيرهما، وأعلن نفسه سلطانا على مصر تحت اسم «الملك المظفر سيف الدين» فجاء اختياره للقب والكنية اختيارا موقفا، فقد أثبتت الحوادث أنه سيف بتار على الأعداء، أما الظفر فكان حليفه فى معركة الفاصلة مع المغول، وبدأ على الفور فى إعداد الجيش إعدادا قتاليا يتناسب مع جلال المهمة التى سيقوم بها، ورأى أن يكون اللقاء المحتوم خارج الحدود المصرية، دون انتظار لقدومهم إلى مصر، عملا بنظرية الحرب الوقائية، واتقاء لمخاطر اجتيازه الحدود المصرية، فكانت الموقعة التاريخية التى دارت رحاها فى (عين جالوت) على أرض فلسطين فى العشر الأواخر من رمضان عام ستمائة وثمانية وخمسين هجرية، وهى المعركة التى كانت سببا فى تحول الهجمة المغولية عن مسارها منذ خروجها فى عصر جنكيزخان.. بل كانت سببا فى تحول مجرى التاريخ الإسلامى كله.

الأمير الهائم:

نسيت أن أذكر لك أن الأمير الهائم على وجهه فى الشام (بيبرس) قد عاد إليه صوابه عندما سمع بما يجرى فى مصر من استعدادات حربية، ورأى أن يكون له نصيب فى معركة الشرف والبسالة، فطلب العودة إلى مصر، واستقبله قطز بالترحاب، ومنحه إقطاع قليوب، ووضع على رأس فرقة الفرسان فى جيش مصر المتقدم إلى فلسطين.

وقبل أن أسرد عليك تطورات الموقف العسكرى، أرى أن أسرد عليك شيئا مما لحق بسيرة هذا البطل المظفر قطز، فقد قال عنه صاحب (النجوم الزاهرة) إنه «أول مملوك خلع ابن استاذه من الملك، وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك».

وتمت هذه السنة السيئة فى حاصد إلى يوم القيامة، وبهذه لواقعة فسدت أحوال مصر.

ولا أرى عدلا فى الحكم الجائر الذى أطلقتة أبو المحاسن بن تغرى بردى على السلطان قطز (!!) وهل يعيب قطز أن خلع صبيا خليعا (!!)، أم أن العيب يقع على عاتق الأب الذى لم يحسن تربية أبنه تربية تؤهله لتحمل مسؤولية الحكم، وإنما تركه وديعة فى أيدي الجوارى والمحظيات (!!) إن أحوال مصر لم تفسد بسبب خلع غلام طائش، وإنما الذى أفسدها تجبر حكامها، واستيلاؤهم على السلطة دون إرادة ومشورة من أهلها، وتعسفهم فى أكل أموال الناس بالباطل، ثم الإنفاقهم هذه الأموال فى مصارف العبث والمجون (!!).

تلك هى أسباب الفساد كما كشفت عنها الوقائع، أما السنة لتي استنها قطز فلم يكن لها دخل فى فساد مصر إلى يوم القيامة (!!) وربما نسى أبو المحاسن أن أمراء المماليك بدءوا عهدهم فى مصر بخلع تورانشاه، ابن استاذهم الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم يكتفوا بخلعه كما فعل قطز مع ابن استاذه، وإنما قضوا عليه ضربا وحرقا وغرقا.. وربما التمسنا العذر لصاحب (النجوم الزاهرة) إذا عرفنا أنه من سلالة المماليك الذين كان خلع السلطان عندهم أيسر من خلع الضرس (!!).

والأمر الذى يثير الدهشة أن ابن تغرى بردى وهو يروى لنا تفاصيل مجلس الحرب الذى عقد بالقلعة عشية الإعداد للمعركة الفاصلة يقول بعضمة لسانه إن السلطان المنصور (عليا) كان حاضرا مجلس الحرب وانفض المجلس ولم يتكلم السلطان بكلمة فى المجلس لعدم معرفته بالأمر ولصغر سنه، يعنى كان مثل الأطراش فى الزفة.. ولا يدرى شيئا مما يدور حوله، ولا يفهم أبعاد الخطر الذى تتعرض له البلاد.. ثم يستطرد ابن تغرى بردى فيسرد علينا وقع هذا الجهل على الحاضرين، مما

دفعهم إلى المنادة بخلعه وإحلال قطز محله.. فيقول: «فلهج الناس بخلع المنصور، وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم» ومعنى ذلك أن خلع السلطان الصبي إنما تم بإيعاز من الناس.. ولا أظن أن ابن تغرى بردى يعنى بهؤلاء الناس شعب مصر.. ولكن يعنى الحاضرين من القادة والأمراء والعلماء والفقهاء.. ورغم ذلك يحمل قطز إثم خلع السلطان.

رسالة هولاءكو:

فلنتجاوز عن هذه السقطة لابن بردى ونواصل مشوارنا مع السلطان المظفر وهو يتهيأ لملاقاة التتار، ويسير نحو المكانة التاريخية العظيمة التي رسمها بشجاعته وبسالته، وسط مناخ مترع بالجبن والذل والخنوع والتخاذل. ويكفى أن تقرأ الرسالة التي بعث به ملوك العراق وحلب ودمشق وحماة وحمص.. وإليك نص الرسالة التي حملها وفد المغول إلى قطز:

«من ملك الملوك شرقا وغربا، القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بأنعامه، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك، يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها، إنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه. فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمرکم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ. فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد. فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب. فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص. فخيولنا سوابق، وسهامنا

خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع،
والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون
عند كلام، وختم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان. فأبشروا بالمذلة
والهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق، وبما
كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. فمن طلب حربنا ندم،
ومن قصد أماننا سلم. فإن أنت لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلکم مالنا وعليكم ما علينا،
وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم. فقد حذر من أنذر، وقد ثبت
عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له
الأمر المقدر والأحكام المدبرة. فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير
الأهنة ما ملوكم عندنا سبيل. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن
تضرم الحرب نارها، جباها ولا عزا، ولا كافيا، ولا حرزا وتدهون منا بأعظم داهية
وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم،
فما بقى لنا مقصد سواكم. والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى،
وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاون قد أتى

بحد سيف تنتضى وبواتر

يصير أعز القوم منها أذلة

ويلحق أطفالا لهم بالأكابر

كتاب مسلمون:

ماذا خطر على بالك وأنت تلهث وراء عبارات التهديد التي جاءت في الإنذار

الذى بعث به هولاءكو إلى ملك مصر المظفر قطز؟

لا أشك فى أنك أدركت على الفور أن كاتب صيغة الإنذار مسلم ابن مسلم، وليس كافرا ابن كافر.. فلم يكن للسفاح الأمن أن ينمق تلك العبارات البليغة أو يستشهد بآيات من القرآن الكريم وهو الذى كان يحمل فى قلبه حقدا دفيناً على المسلمين وكتابهم ونبئهم.. والمؤكد أنها من صناعة كاتب مسلم تربى فى أحضان البلاغة العربية وخذق فنونها، ومعنى ذلك أن جيش هولاءكو كان يضم فى صفوفه كتاباً وعلماء مسلمين ساروا فى ركابه، وقاموا بمهمة توجيه الرسائل إلى ملوك الديار الإسلامية، ولم يكن لهولاءكو إلا البصم.

الفصل السادس

٦

والإسلام

وإسلاماه:

المعارك الفاصلة فى التاريخ لا تكتسب شهرتها من ضخامة القوات، أو حجم المعدات، أو كثافة النيران، أو اتساع مسرح العمليات، وإنما تكتسبها من أثرها فى تحويل مجرى التاريخ. وأقرب مثل على ذلك فى عصرنا معركة «العلمين» التى دارت رحاها على مشارف الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية، فهى لا تقاس، من حيث الضخامة والقدرة القتالية، بالمعارك الهائلة التى شهدتها أوروبا، ومع ذلك كان لمعركة العلمين الأثر الكبير فى تغيير مسار الحرب لصالح الحلفاء، ومنها بدأ تراجع قوات المحور وانتهى بهزيمة ألمانيا وإيطاليا (...). وكذلك كان شأن معركة عين جالوت، التى انتصرت فيها القوات المصرية بقيادة الملك المظفر «قطز» على جيش التتار بقيادة كتبغا، قائد جيوش هولوكو وكان الانتصار المعنوى أضعاف النصر العسكرى، فقد سقطت هيبة المغول فى أنظار المسلمين، وأمسك المسلمون لأول مرة زمام المبادرة، وأخذوا يطاردون جيوش الاحتلال المغولى حتى طهروا منهم أرض فلسطين والشام وأعادوهم إلى ما وراء الفرات.

قبل «عين جالوت»، كان ظهور اسم المغول فى بلد من البلدان، كفيلا بإثارة الفزع والخور فى نفوس أصحاب هذا البلد، فيلقون السلاح من غير قتال، ويهربون فى الفيافى طلبا للنجاة بأرواحهم من قتل محقق، وتساقطت المدن والقلاع فى أيديهم كالثمار الجافة بدون حرب، بعد أن بلغت شهرتهم فى التوحش والإجرام حدا لم تبلغه جيوش فى التاريخ.. ولكن بعد «عين جالوت» تغير الموقف لصالح المسلمين، فرأينا حاكما يملك من رباطة الجأش، والثقة بالنفس، ما جعله يتحدى المغول، ويسخر من تهديدهم، ويقطع رءوس الرسل الذين جاءوه بالإنذار ثم يعلقها

على أبواب القاهرة، ليعلم الكافة أن في السويداء رجالا قادرين على كسر أنوف المغول ووضعها في الرغام، ثم إذا به يخرج بالجيش ليلقاهم ملاقاتة الند فكان النصر حليفة.

وإذا أردت أن تعرف لهذا الملك المظفر «قطز» قدره الحقيقي، وتضعه في المكانة اللائقة بين ملوك المسلمين، فما عليك إلا أن تضعه موضع المقارنة مع ملوك الأيوبيين المعاصرين له في الشام، عندئذ يتبدى لك «قطز» في صورة الجندي الجسور الذي يستهين بالموت ليكتب له الخلود، ويبدو لك ملوك الأيوبية في صورة صببية يتناصرون على صغائر الأمور، ويتنافسون على الدنيا، فكتبوا نهايتهم بأيديهم، وانقضت دولتهم من الديار الشامية، مثلما زالت من الديار المصرية، ووضع «قطز» حجر الأساس لدولة المماليك التي حكمت مصر والشام زهاء ثلاثة قرون، وتحملت - عن جدارة - مسئولية حماية المنطقة كلها من أطماع الطامعين من الشرق والغرب.

صاحب الشام:

ولن أسرد عليك مصائر الملوك الأيوبيين في الشام، وما اعتراهم من جبن حتى قضت عليهم معاول التتار، ويكفى أن أقص عليك نبأ كبيرهم، السلطان الناصر صاحب حلب ودمشق، ففي قصته عبرة لما جرى لإخوته وأبناء عمومته.

لقد أهل المحرم من عام ثمان وخمسين وستمائة هجرية، وجيش هولاءكو يعبر الفرات في طريقه إلى حلب، وبعد أن حاصرها عدة أيام، اقتحمها عنوة، وأباحها لجنوده، فانطلقوا كالوحوش المفترسة يفتكون ويسفكون حتى امتلأت الطرق بجثث القتلى، وهدموا المساجد والمباني وخربوا كل ما يقع تحت أيديهم حتى تحولت حلب الشهباء إلى أطلال، وعلم الملك الناصر - وهو بدمشق -، فانتابه الذعر، وصار أكبر همه أن ينجو بنفسه من سيف هولاءكو، ولم يفكر لحظة واحدة في الصمود

والتضحية. أما الملك المظفر «قطز» فكان له موقف آخر عندما علم بما حل بحلب، فبعث إلى الملك الناصر برسالة عاجلة يعرض عليه فيها توحيد الصفوف لمواجهة العدو المشترك، ويقترح عليه القدوم إلى مصر ليقود منها جيش الخلاص لإنقاذ الشام من الاحتلال المغولي، ويقسم له بأغلظ الأيمان أنه لا ينازعه في السلطان، ويقول له بصريح العبارة: اعتبر نفسك حاكما على مصر، واعتبرني بصريح العبارة نائبا عنك، ومتى جئت إلى مصر أقعدتك على الكرسي وصرت في خدمتك، وإن رأيت قدمت إليك ومعى جيش مصر لنقف معا في وجه التتار، فإن كنت لا تأمن جانبي إذا حضرت إليك، فإنى على استعداد لأبعث إليك بعسكر مصر صحبة من تختاره (!!).

ولكن الملك الناصر لم يكن فى حالة نفسية تسمح له بالاختيار الصحيح.. كانت روحه المعنوى، منهارة، ومن كان هذا شأنه يصعب عليه أن يهتدى إلى قرار رشيد، ومن سوء حظه أن كان إلى جانبه وزير خئون، اسمه زين الدين الحافظى، على استعداد لأن يبيع وطنه ودينه وشرفه وضميره من أجل حفنة دنانير يتقاضاها من عملاء التتار، فأخذ يزين لسيدة مزايا الاستسلام ويخيفه من الوقوف فى طريقهم، عندئذ صاح الأمير بيبرس - وكان لم يزل فى صحبة الناصر- فى وجه الوزير المرتشى قائلا: أمثالك سبب هلاك المسلمين (!!) وكان الملك الأيوبى فى حالة من الدهول والتخاذل، تحول بينه وبين اختراق حاجز الخوف والانصياع لرأى بيبرس، فانهاز لنصيحة الوزير، وعندئذ أدرك بيبرس استحالة الاعتماد على الناصر، وأنه ليس رجل الساعة، فأزمع الرحيل إلى مصر ليدخل فى طاعة «قطز» ويقف إلى جانبه فى حرب التتار، وكان قطز عند مستوى الموقف، فخرج بنفسه لاستقبال بيبرس عند الصالحية، وأنزله المنزل الذى يليق به فى دار الوزارة بالقاهرة وأنعم عليه بإقطاع قلوب كما سبق أن ذكرت لك.

الناصر يبكى:

وتحت تأثير حالة الهلع التي كان عليها الملك الناصر، تفرقت عساكره حتى لم يعد في دمشق جيش يحميها، ولجأ بعضهم إلى مصر وعلى رأسهم الملك المنصور صاحب حماه، فتلقاهم قطز بالترحاب، وأعد لهم مكانا في صفوف الجيش المصري، وخرج أهالي دمشق يهيمون على وجوههم قبل أن تفتك بهم سيوف التتار، وباعوا كل ما يملكون بأبخس الأثمان، وبعث الناصر بحريمه وأولاده وأمواله إلى مصر ليجدوا فيها ملاذا، وخرج هو في جمع من أتباعه هاربين حتى وصلوا غزة، وربما راودته نفسه باللجوء إلى مصر، ولكنه تراجع.. وأخذ يضرب في صحراء سيناء بحثا عن مأوى.. حتى نزل مدينة «عجلون» وهناك تسلل أحد أتباعه الخونة، واسمه حسين الطبردار، وذهب إلى معسكر كتبغا قائد المغول وأبلغه بمكان سلطان الشام، فبعث كتبغا بضعة جنود قبضوا على الملك الناصر، ثم أرسله مخفورا إلى هولاءكو وهو يومئذ في حلب، وسار الناصر أسيرا في قبضة التتار، فلما عاين حلب، هاله ما صارت إليه من خراب ودمار، فلم يتمالك نفسه وبكى كما تبكى النساء ملكا لم يحافظ عليه كالرجال، وأنشد يقول:

سقى حلب الشهباء في كل بقعة

سحائب غيث نوؤها مثل أدمعى

فتلك مرامى لا العقيق ولا اللوى

وتلك ربوعى لازرود وأملع

ولما بعد عنها قليلا أنشد:

ناشدنك الله ياهطالة السحب

إلا حملت تحياتي إلى حلب

لا عذر للشوق أن يمشى على قدر

ماذا عسى يبلغ المشتاق في الكتب

أحبابنا لو درى قلبى بأنكم

تدرون ما أنا فيه لذلى تعبى

ثم بكى بكاء مرا طويلا وأنشد:

يعز علينا أن نرى ربكم يلى

وكانت به آيات حسنكم تتلى

لقد مر لى فيها أفانين لذة

فما كان أهنى العيش فيها وما أحلى

أحبابنا والله ما قلت بعدكم

لحادثة الأيام وقفها ولا مهلا

عبرت على الشها وفي القلب حسرة

ومن حولها ترك يتابعهم مغلا

وبينما كان الملك الناصر صاحب سلطان الشام يمضى إلى مصيره التعس، كان أخوه الملك الأشرف صاحب حمص يسجد ليقبل الأرض بين يدي هولاءكو، علامة الذل والخضوع، متمنيا من السفاح المغولى أن يترك له البرج الذى ضم الحریم، واستشاط هولاءكو غضبا لهذا الطلب، ولكن زوجته «طقزخاتون» تدخلت لتقنع

زوجها بتحقيق مطلبه اليسير، فقال لها هولأكو: إنما منعتة لأجلك .. حتى أجعل بنات الملوك خدمك (!!) فقالت: هم خدمى وقد وهبتهم له: فسمح له بالبرج.. فقبل الأرض مرة ثانية، وعندما حاول النهوض، عجز، فحملوه من إبطيه حتى وقف على ساقين خائرتين ولسانه يلهج بالحمد والشكر.

إلى عين جالوت:

لنترك الناصر فى مصيدة هولأكو إلى أن يقضى فى مصيره، ولنترك الأشرف ليعود ظافرا إلى حريمه فى البرج، ونعود إلى مصر لنرى ما كان من شأن الملك المظفر «قطز» بعد أن تواترت إليه أنباء الهزائم المتلاحقة فى الشام، ورسالة هولأكو تنذره بالهلاك الأكيد إذا لم يعلن الخضوع لحفيد جنكيز خان، ولنترك مؤرخنا الجليل تقى الدين المقرئى يروى لنا هذه الصفحة المشرفة من تاريخ مصر والعالم الإسلامى:

جمع قطز الأمراء واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية، فقبض على الرسل، واعتقلوا، وشرع فى تخليف من تخيره من الأمراء، وأمر بالمسير والأمراء غير راضين بالخروج كراهة فى لقاء التتر. فلما كان يوم الاثنين خامس عشر من شعبان، خرج الملك المظفر بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركماني وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية.

وفيه أحضر «قطز» رسل التتر، وكانوا أربعة: فوسط واحدا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية. وعلقت رءوسهم على باب زويلة، وهذه الرءوس أول رءوس علقت على باب زويلة من التتار. وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل، وجعله من جملة مماليكه.

ونودى فى القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله،

ونصرة نبيه رسول الله ﷺ. وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. وسار حتى نزل بالصالحية، وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل. فقال لهم: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغرابة كارهون، وأنا متوجه.. فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته. فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.

فلما كان في الليل ركب السلطان، وحرك كوساته وقال: «أنا ألقى التتار بنفسى»، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره. وأمر «الملك قطز» الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار «بيبرس» إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله وملك «هو» غزة.

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بها يوماً، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئذ الفرنج، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة، فشكرهم وأخلع عليهم، واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقتلهم قبل أن يلقى التتر.

وأمر «الملك قطز» بالأمراء فجمعوا، وحضهم على قتال التتر، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصره الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله. فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتر ودفهم عن البلاد. فأمر «السلطان» حينئذ أن يسير الأمير «ركن الدين» بيبرس «البندقدارى» بقطعة من العسكر، فسار حتى لقي طليعة التتر. فكتب إلى

السلطان يعلمه بذلك. وأخذ في مناوشتهم، فتارة يقدم وتارة يحجم، إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت.

وكان كتبغا وبيدرا نائبا هولوكو، لما بلغهما مسير العسكر «المصرية» جمعا من تفرق من التتر في بلاد الشام، وسارا يريدان محاربة المسلمين، فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها، فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من شهر رمضان التقى الجمعان، وفي قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس. وقد امتلأ الوادي، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل، فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتفض طرف منه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته! وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره وقتل كتبغا مقدم التتر، وقتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز - وكان مع التتر - وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدي السلطان.

ومما اتفق في هذه الواقعة، أن الصبي الذي أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه، كان راكبا وراءه حال اللقاء. فلما التحم القتال فوق سهمه نحو السلطان، فبصر به بعض من كان حوله فأمسك وقتل مكانه. وقيل بل رمى الأرض، وصار السلطان على قدميه، فنزل إليه «فخر الدين ماما» وأركبه فرسه، حتى حضرت الجنائب فركب فخر الدين منها.

ومر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابره وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالا شديداً فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول:

«وإسلاماه»! ثلاث مرات، «يا الله! انصر عبدك قطز على التتار». فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم.

دخول الظافرين:

تلك هي معركة «عين جالوت» التي جرت في العشر الأواخر من رمضان عام ٦٥٨هـ، وما أدراك ما «رمضان» في تاريخ الحروب الإسلامية منذ فتح مكة، وصارت عين جالوت نقطة تحول في مجرى التاريخ الإسلامي، وهذا هو «قطز» صانع النصر المؤزر، وصاحب قرار الحرب، والجندي الذي تملكته روح الإقدام والشجاعة والتضحية، فوقف في وجه المتخاذلين من أعوانه، واستخدام معهم أفانين اللين تارة.. والحيلة تارة أخرى.. والإحراج تارة ثالثة حتى انصاعوا له، وساروا في ركابه حتى النصر.

وقبل أن نصحب «قطز» في جولته المظفرة في ربوع الشام، ينبغي أن نبحث مصير سلطان الشام الملك الناصر يوسف، وقد دارت كل هذه الأحداث الهائلة وهو أسير في قبضة هولاءكو ومعه ابنه الملك العزيز.

قبل أن يلتقى المصريون والتتار في عين جالوت، أراد هولاءكو أن يعرف شيئا عن قدرات مصر العسكرية، ومدى قدرتها على الصمود في وجه التتار، ولم يكن أقدر من سلطان الشام على تقديم هذه المعلومات. فأخذ يهون له من شأن جنود مصر وقادتها.. ويقول له: ما هم إلا نفر قليل من العسكر، وأقوام من ممالك بيتنا الأيوبي لا يبال بهم.. وتكفى تجريدة يسيرة للقضاء عليهم!! وسمع هولاءكو كلام الناصر ولم يعلق.. فلما جاءت أنباء الهزيمة الماحقة التي وقعت لجيشه في عين جالوت، استشاط غضبا.. وتطايرت عيناه شراراً.. واستدعى إليه الملك الناصر، وقال له: أنت

الذى قلت إن عسكر مصر لا يصمدون أمام تجريدة يسيرة من جنودنا، لقد خدعتنى وهونت على الأمر حتى وثقت بك، وعفوت عنك وقلدتك أمر مصر والشام.. ومنحتك المال والجند لتستعين بهما على تخليص مصر من براثن المماليك، ولكنك كنت أعجز من أن تسترد شبرا من الأرض.. فحقت عليك اللعنة.. وانهاال هولاءكو على رأس الملك الناصر بقطعة من الحديد حتى تفجرت منها الدماء.. وأسلم الروح بعد أن دفع ثمن جنبه وتخاذله.. وتشفعت «طقز خاتون» زوجة هولاءكو فى ابنه العزيز، فمنحه لها السفاح التترى، فكان الوحيد الذى نجا من القتل، وسار فى صحبتها بعد عودتها إلى العاصمة المغولية، ولم يعلم مصيره بعد ذلك.

تركى من مصر:

أما الملك المظفر «قطز» فقد دخل دمشق دخول الظافرين، بعد أن طهرها من رجس التتار، وخرج أهلها يستقبلونه بالمهج والأرواح بعد أن ردت إليهم الروح، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر، لأن القلوب - كما يذكر بدر الدين العيني فى عقد الجمان - كانت قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، ولأنهم، أى التتار، ما قصدوا إقليما إلا فتحوه، ولا عسكرا إلا هزموه، وفى يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من العلماء الذين ساندوا التتار، ومنهم حسين الطبردار، الذى وشى بسلطان الشام، ولن أسرد على مسامعك قصائد الشعر التى تبارى الشعراء فى إلقائها تعظيما وتقديرا لقطز، ولكن يعينى منها بيتان اثنان قالهما أبو شامة وهو يتفاخر بأمجاد هذا الملك الجسور:

غلب التتار على البلاد فجاءهم

من مصر تركى يجود بنفسه

بالشام أهلكتهم وبدد شملهم

ولكل شيء آفة من جنسه

وقد يدهشك أن يصف أبو شامة قطز بأنه «التركي» من جنس التتار، ولكن تزول دهشتك إذا علمت أن أبا شامة نهج نفس منهج مؤرخي العصور الوسطى، وقد كانوا يخلطون بين الترك والمغول والتتار، ولم يضعوا حدوداً فاصلة بين هذه الأقوام التي جمعت بينها وحدة السهوب الآسيوية، فكانوا يصفون سلاطين مصر المماليك بأنهم من جنس المغول، ويصفون المغول بأنهم والتتار في سلة واحدة، ولم تتبين الخطوط الفاصلة بين هذه الأجناس، إلا بعد أن تقدمت الدراسات التاريخية في العصور الحديثة، وعكف علماء الأجناس على بحث هذه الإشكالية العرقية، وتستطيع أن تعود إليها إذا كنت من هواة البحث في أصول الأمم والشعوب.

أما وصف «قطز» بأنه تركي، فتلك حقيقة تاريخية غير منكورة، وأما قول أبي شامة بأن «لكل شيء آفة من جنسه» فهو قول بليغ سبق به علماء زمانه، ولو نظرت إلى هذه العبارة على ضوء علم الحياة فسوف تكتشف قدر مطابقتها للحقائق العلمية.

وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن الشجرة العائلية التي نبت منها «قطز» فاعلم أنه من أبناء الملوك الذين ملكوا دولة خوارزم شاه التي تقع جنوبي بحيرة آرال وإلى الشمال من إقليم خراسان الإيراني، وإلى الغرب من نهر جيحون- وتسبب موقعها البائس في أن تكون متاخمة لإمبراطورية المغول التي أقام دعائمها جنكيز خان- ودفعت ثمن هذا الموقع غالباً عندما اجتاحتها جيوش المغول في مطلع حملتهم التدميرية، وكانت دولة خوارزم شاه أول دولة إسلامية تتعرض للتدمير والخراب، ولم تتمكن من الصمود أمام الجحافل التتارية، رغم المحاولات اليائسة التي بذلها ملوك هذه الدولة لصد

التتار، فقد كان التيار أقوى من قدراتهم، وكان الإعصار أشد مما تتحمله مرحلة الضعف التي كانت تمر بها دولة خوارزم، كان نجمهم قد دخل مرحلة الأفول، في الوقت الذي بلغت فيه قوة المغول غاية العنفوان.. واستسلم آخر ملوكهم جلال الدين. وتفرق كل أبناء أسرته في اتجاه الغرب هرباً من فتك المغول، وكان منهم هذا الصبي الصغير محمود بن مودود، وأمه «تركان خاتون» أخت جلال الدين، وأبوه ابن عم السلطان وابن عم أمه، وتداولته أيدي النخاسين حتى بيع في دمشق لرجل اسمه ابن العديم، ورغم مصداقية هذه القصة التي جعلت قطز من سلالة الملوك، إلا أن المؤرخين، على طريقتهم، أضافوا إلى هذه القصة بعض الحواشي والإضافات والإرهاصات التي تنبأت لقطز بأنه سيملك مصر.. وستتم على يديه هزيمة التتار.. إلخ هذه التنبؤات التي تحيط دائماً بقصص المشاهير، بعد أن يبلغوا ذروة المجد.. وهي قصص تجمع بين الطرافة والإثارة.. وستكون موضوع حديثنا القادم إن شاء الله.

الفصل السابع

٧

فِي أُعْقَابِ
عَيْنِ جَانُوتِ

فى أعقاب عين جالوت:

لم تكن معركة «عين جالوت» نهاية الحرب الطاحنة بين المغول والمسلمين.. بل كانت بداية سلسلة من الحروب الوحشية شنّها المغول للثأر من هزيمتهم النكراء.. ولاستعادة هيبتهم التي سقطت على أرض فلسطين. وللحفاظ على ممتلكاتهم فى العراق وإيران وأذربيجان.. وبدأ هولاء كوايستعد للانتقام من حكام مصر المماليك، الذين طهروا الشام من فلولة وأعادوها إلى التوحد مع مصر مثلما كانت فى عصر صلاح الدين الأيوبي، ولكن الموت لم يمهل السفاح المغولي لتنفيذ هذه الخطة، فترك أمرها إلى ابنه «أباقاخان» الذى جلس على عرش أبيه بعد أن نقل عاصمة الدولة الأيلخانية إلى تبريز وحمل على عاتقه، مهمة إعادة مجد المغول الحربى إلى سابق عهده، فبدأ فى إعادة تنظيم مملكته إداريا وحربيا استعدادا للصدام المرتقب. واتجه إلى الجبهة المسيحية فى أوروبا لتصنع معه كماشة تطبق على أرض المسلمين من الشرق والغرب. وبعث الوفود إلى المقر البابوى فى روما، وإلى بلاط لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان لا يزال يتجرع مرارة هزيمه فى المنصورة. ولكن لم يكتب النجاح لقيام هذا الحلف بسبب هبوط الروح المعنوية الصليبية أولا، وبسبب تخوف الأوروبيين من غدر المغول ووحشيتهم وانقلابهم على الغرب المسيحي ثانيا.

عندئذ قرر «أباقاخان» أن يمضى وحده إلى قتال المسلمين، مكثفيا بمساعدة هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى، الذى لعب الدور الأكبر فى قتل المسلمين أثناء التواجد المغولى فى الشام، وظل يمارس دوره فى تحريض المغول على العودة إلى الشام. فلما جاءت دعوة أباقاخان لمشاركته فى الحملة الجديدة، لبي الدعوة مرحبا ومتحمسا.. ولكن شاء الله أن يخذله مع أسياده المغول، وشاء الله أن يكتب النصر

للمسلمين خلال المعارك الثلاث المجيدة التي لم تأخذ حظها من الشهرة في التاريخ الإسلامي بالقدر الذي حظيت به عين جالوت.. وكأنما الأحداث مثل البشر تتفاوت في الحظوظ (!!).

وقعت أعباء المواجهة الجديدة على أكتاف النجم الصاعد (بيبرس) بعد أن غدر بسيدة ومليكه (قطز) عشية انتصاره المؤزر في عين جالوت حتى حمل عن جدارة لقب (الملك المظفر).. وكأنما أراد بيبرس أن يكفر عن جريمته التي دفعه إليها شيطانه في لحظة من لحظات الأنانية وحب السلطة، فنذر نفسه لتأديب المغول وإحباط مشروعاتهم العدوانية ضد الشام ومصر، وتفرغ لوضع إستراتيجية جديدة قوامها إنشاء جيش قوى يتمتع بقدرات قتالية فائقة. واعتماد سياسة الحرب الوقائية التي تسلب من العدو زمام المبادرة وتفرض عليه زمان ومكان المعركة قبل أن تكتمل عدته. وبدأت الخطة بتأديب ملك أرمينيا الحليف المقدس للمغول حتى يكون في تأديبه ردع لآسياده.

المعركة الأولى:

وبدأت المواجهة، فأرسل بيبرس جيشا على رأسه نجم جديد من نجوم المماليك، هو الأمير سيف الدين قلاوون الذي هيأته الأقدار ليكون خليفة لبيبرس على عرش مصر والشام، مثلما كان خليفته على رأس الحملة المصرية، وبدأ الجيش المصرى مهمته القتالية بالاستيلاء على القلاع التي كانت تحمى إمارة طرابلس الصليبية. وبعدها انفسح أمامه الطريق لتأديب ملك أرمينيا الذي كان غائبا عن بلاده في ذلك الوقت، فقد كان في تبريز يستجدي رضاء المغول ويحرضهم على الهجوم على الشام قبل أن تزحف إليها جيوش مصر.. وفي صيف ٦٦٥ هجرية اقتحم قلاوون معاقل المملكة الأرمينية وأوقع الهزيمة بمن كان فيها من الأرمن وحلفائهم المغول. وكان

بين القتلى ابن الملك هيثوم، ووقع ابنه الثاني فى الأسر. وأغار الأمير قلاوون على المدن الأرمينية الرئيسية: المصيصة وأذنة وطرسوس، أما شريكة الملك المنصور الثانى الأيوبى فقد اتجه إلى «سيس» عاصمة أرمينيا وجعل عاليها سافلها، ثم أشعل النار فيها فدمرتها، وأتت على كنيساتها ومقابر ملوك أرمينيا السابقين، وبعد أن قضت جيوش الإسلام المشكل من المماليك أساساً وحلفائهم من أمراء البيت الأيوبى بالشام فى أرمينية عشرين يوماً، عادوا إلى بلاد الشام ومعهم أربعون ألف أسير. ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصى حتى يقول المقرئى إن رأس البقر بيع بدرهمين ولم يوجد من يشتريه .

المعركة الثانية :

أما الحرب الثانية التى شنها المماليك على المغول، فقد دارت رحاها على أرض الأناضول فى آسيا الصغرى عند صحراء «البستين» بعد أن تواردت الأنباء عن قيام حلف بين المغول، وملوك أوروبا الصليبيين وكان إدوارد الأول ملك إنجلترا من أشد المتحمسين لسياسة التحالف مع المغول للقضاء على قوة المماليك فى مصر والشام، وكان السلطان الملك الظاهر بيبرس على علم بكل ما يحاك ضد دولته والمسلمين عامة من مؤامرات ودسائس، فقرر مهاجمة أعدائه والإجهاز عليهم وتشتيت جموعهم، قبل أن يفاجئوه ويتمكنوا منه، فبعث جيشاً إلى مملكة أرمينية فى عام ٦٧٥ هجرية وأغار على مدنها برا وبحرا، ولم يجرؤ الملك «ليو الثالث» الذى خلف والده هيثوم على العرش الأرمينى على الوقوف فى وجهه، وبذلك تمكن بيبرس من تجميد قوة أرمينية وإبعادها عن مسرح القتال ومشاركة المغول فى معارك قادمة، ثم أدار بيبرس وجهه للمغول الذين كانوا قد هاجموا الشام قبل ثلاث سنوات وعاثوا فيها فساداً، ولكنهم انسحبوا خلف الفرات عندما شعروا بتحركات بيبرس وعدم قدرتهم على مواجهته، وعندئذ استدار بيبرس إلى دولة السلاجقة فى الأناضول التى كانت

تحت حماية المغول، وتمكن بيبرس من إيقاع هزيمة منكرة بالجيش المغولي عند صحراء «البستين» وأسقط الحكومة السلجوقية وأعلن نفسه وريثا لسلاطين سلاجقة الروم في حكم الأناضول، وجلس على عرش آل سلجوق. وخطب لسليمان مصر على منابرها. وعاد بيبرس إلى الشام بعد أن دحر المغول ومحانفووهم عن آسيا الصغرى. وما أن سمع «أباقاخان» بما وقع لجيشه في الأناضول حتى انتقل إلى مدينة قيسارية ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول، فصب على أهل المدينة وابلا من العذاب وانتقم من مسلميها شر انتقام لترحيبهم بسليمان مصر، ثم انتقل إلى موقع المعركة في البستين ليلقى نظرة على حطام المعركة، وامتألت نفسه بالغيظ والنقمة وهو يستعرض جثث جنوده ملقاة في العراء. وزاد من غيظه أنه لم يجد أحدا من عساكر الروم مقتولا. فأمر بنهب بلاد الروم كلها، وقتل كل من يصادفونه من المسلمين، حتى بلغ عدد القتلى أكثر من ٢٠٠ ألف نفس، ويروي مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله في (جامع التواريخ) أن أباقاخان أجهش بالبكاء عندما شاهد قتلى المغول مكدمين، وحزن على رجاله حزنا شديدا، أما المؤرخ المصري المقرئ فيروي أن أباقاخان قتل من ببلاد الروم من المسلمين، ويقال إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على ٢٠٠ ألف نفس، ولم يقتل أحدا من النصارى.

المعركة الثالثة:

بعد معركة الأناضول وجد أباقاخان نفسه في وضع لايسمح له بقتال المماليك، خاصة وأن قوتهم العسكرية وحماستهم الدينية كانت قوية جارفة، فما كان منه إلا أن أثار من جديد تشكيل حلف من المغول والمسيحيين للوقوف في وجه المسلمين على أساس أن المسيحيين حلفاء طبيعيين له ولدولته، فاتفق مع «ليو الثالث» ملك أرمينية على القيام بحملة كبرى على الشام لطرد المماليك واستخلاص بيت المقدس للمسيحيين، وتوافدت رسل أباقاخان على العواصم الأوروبية تحثهم على الانضمام

للحلف الجديد وإرسال حملة صليبية مشتركة إلى الشام للقضاء على عدوهم المشترك: المماليك ولكن ملوك أوروبا قابلوا الدعوة بنفس الفتور الذي حدث في المرة السابقة.

وكان السلطان بيبرس قد توفى في ٦٧٦هـ، وعلى أثر موته تعرض العرش المملوكي لبعض الاضطرابات نتيجة الصراع على الحكم، حتى أن أحدهم وهو الأمير سنقر الأشقر أعلن نفسه سلطانا على الشام اغتصابا. واتصل بالمغول ليشدوا من أزره ضد سلطان مصر الجديد سيف الدين قلاوون الذي نجح في إيقاع الهزيمة بالأمير سنقر فلجأ إلى المغول يستجدي مساعدتهم، وانتهاز أباخان هذه الدعوة وأرسل قوة مغولية استطلاعية إلى شمال الشام استطاعت أن تحتل عينتاب ودخلت حلب ونهبتها «وأحرقوا الجامع والمساجد والمدارس المعتبرة ودار السلطنة ودور الأمراء» كما يذكر أبو المحاسن في «النجوم الزاهرة» وكان من شأن هذا الغزو أن يغري المغول للدخول في معركة حاسمة مع المماليك. فأخذوا يعدون العدة لمعركة حاسمة.

يقول الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي في كتابه (تاريخ الدولة المغولية في إيران) إن أمراء المماليك ما أن علموا بما فعله إيلخان المغولي من اجتياحه البلاد السورية حتى اتحدوا فيما بينهم وتعاهدوا على مواجهة المغول ضفا واحدا ونبذوا الخلافات التي كانت بينهم بسبب الصراع على السلطة، والتفوا حول الملك المنصور سيف الدين قلاوون الذي وجه همته إلى صد غارات المغول، وأرسل جزءا من الجيش المملوكي عسكر بالقرب من حماة. ومن ناحية أخرى أخذ الأمراء يرسلون الأمير المتمرد (سنقر) وقالوا له:

وهذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف بيننا وما ينبغي هلاك الإسلام، وكان لذلك القول أثره في نفس سنقر الأشقر فمنع جنده من محاربة المصريين.

موقعة حمص:

ويصف المقریزی ما حدث لبلاد الشام أثناء حملة أبا قاخان فيقول:
ولما وصلت الأنبياء بزحف المغول إلى أطراف حلب أخلاها أهلها. ومن كان معسكرا فيها من الجنود ونزحوا إلى حماة وحمص. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى هجمت طوائف المغول على أعمال حلب واستولوا على عينتاب ودرساك، ودخلوا حلب نفسها فأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ودور الأمراء، كما ارتكبوا في هذه الولاية من صنوف الوحشية والعسف ما اضطر الأهالي إلى الفرار نحو الجنوب، ثم رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والغنائم، أما أهالي دمشق فقد تملكهم الهلع والرعب وهاجر منهم خلق كثير إلى مصر ليحمتوا بها.

وأطبقت على الشام ثلاثة جيوش جرارة. أما الجيش الأول الرئيسي فقيادة أبا قاخان نفسه قادما من شمال العراق، والجيش الثاني بقيادة أخيه منكوتمر قادما من عينتاب، والجيش الثالث المسيحي بقيادة ملك أرمينية، وزحفت الجيوش الثلاثة إلى (حمص) حيث كان جيش المماليك بقيادة السلطان قلاوون يربط فيها. وفي يوم ١٤ رجب عام ٦٨٠ هجرية دارت رحى المعركة وانتهت بهزيمة المغول هزيمة فاحشة وصفها النويري في (نهاية الأرب) فقال: «ونازل أبا قاخان قلعة الرحبة، وتقدم منكوتمر بن هولاكوت حتى وصل حماة، وكان جيشه يضم عدة فرق من الأرمن والكرجة والفرنجية، وقد التقت هذه الطوائف بجيوش السلطان الملك المنصور التي كانت تتكون من جنود مصر والشام وفريق كبير من الأكراد والتركمان، ثم دار القتال بين الفريقين بالقرب من (حمص) حيث حمل جيش المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم.

وأورد الحافظ الذهبي أن الفريقين التقيا شمالى تربة خالد بن الوليد، وكانت معركة حاسمة انتصر فيها المسلمون نتيجة الحماس الدينى وطلب الموت فى سبيل الله، وانكسر المغول، وأصيب منكوتمر بطعنة وفر من أرض المعركة فاستحكمت هزيمتهم وركب المسلمون أقفيتهم.. ولما علم أباقاخان بانهزام أتباعه رحل إلى بغداد، ولحق به من نجا من المغول وفيهم أخوه منكوتمر الذى استاء منه أباقاخان لعجزه عن إلحاق الهزيمة بجند المماليك وقال له: لم لا مت أنت والجيش ولا انهزمت. وكان لهذا التقريع أثره السيئ على نفس منكوتمر فأصيب بالصرع الذى أصاب أباه هولاءكو.. فهلك بنفس الداء الذى أهلك أباه.

يقول الدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمى: وبهذه المعارك الثلاث التى انتصر فيها المماليك على المغول، مضافا إليها معركة عين جالوت استقرت الحدود الفاصلة بين المغول والمماليك نهائيا بين سوريا وبلاد ما بين النهرين.

لماذا انهزموا؟

ونتوقف عند هذا الفصل من فصول المواجهة الدموية بين المسلمين والمغول منذ خروجهم على عصر جنكيزخان.. لنأخذ العبرة من هذه الأحداث الفاجعة التى قوضت ممالك الإسلام فى خوارزم وإيران والعراق وأذربيجان، وكاد لظاها يلتهم الشام ومصر لولا الوقفة الباسلة التى وقفها أمراء المماليك فى عين جالوت وما بعد عين جالوت.

السؤال الذى يلح على خاطر القارئ المتابع لهذه السلسلة من الأحداث الجسام هو: لماذا انهزم المسلمون أمام جحافل المغول فى بدء غزواتهم؟ ولماذا انتصروا فى ختامها؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضينا إلقاء نظرة نقدية على العالم الإسلامى فى

الفترة التي بزغ فيها نجم المغول. عندئذ نرى عالما مفككا اعتراه الهزال والضعف ونخرت فيه عوامل الانحطاط والتخلف. كانت دولة الخلافة العباسية قد بلغت أدنى درجات الضعف، وزالت عنها شمس القوة والمجد التي سطعت عليها في عصرها الأول. وصارت شبها لا يخيف عدوا ولا يرهب خصما. واجتاحتها سيوف المغامرين والمتسلطين من أمراء الدويلات والإمارات العرقية. وتحول الخليفة إلى سجين لا تتعدى سلطاته حدود القصر الذي يعيش بين أسواره في بغداد راضيا بما يحيط به من مظاهر اللهو والعبث وجحافل الغلمان والجواري.

في عام ٣٣٤ هجرية سيطر الديلم على مقر الخلافة وصار إليهم الأمر والنهي، وأقاموا الدولة البويهية ذات الصبغة الشيعية في الوقت الذي كانت فيه الخلافة تفخر بأنها معقل السنة وركنها الركين، وفي عام ٤٤٧ هـ حل الأتراك السلاجقة محل البويهيين في السيادة والتسط، وصار الخليفة دمية في أيديهم، ثم تسرب إليهم الضعف فظهرت دولة خوارزم شاه، فأعطت لنفسها حق وراثته السلاجقة في التسلط على دولة الخلافة. وازداد نفوذ هذه الدولة واتسعت ممتلكاتها حتى طمعت في ممتلكات الخلافة واستقر عزمها على اقتحام بغداد وإسقاط الخليفة (الناصر) ليحل محله خليفة شيعي، ولم يمنعها عن ذلك إلا دقات الطبول القادمة من الشرق لتعلن عن قدوم جحافل المغول، فكانت دولة خوارزم شاه أول دولة إسلامية تدكها معاول المغول وتمحوها من الوجود.

غناء السيل:

لم يكن المغول - حين وطأت أقدامهم أرض الإسلام - يتفوقون على المسلمين عددا أو عدة.. كان المسلمون أعتق حضارة، وأعرق مدنية، وأكثر عددا. ولكنها كثرة كغناء السيل.. نفعها قليل.. وضررها كثير.. فنزع الله من قلوب أعدائهم

المهابة.. وقذف فى قلوب المسلمين الضعف والوهن بسبب تكالبهم على السلطة والنفوذ، وفرارهم من التضحية والإقدام.. كانوا يفرون- كالجراد- فى الفيافي والصحراء عندما يسمعون اسم «المغول».. ويلقون ما بأيديهم من سلاح ثم يولون الأدبار بعد أن نزعت من قلوبهم الشجاعة والفداء.. وحل محلها الخوف والرعب والهلع.

وعندما جاء المغول إلى ديار الإسلام وجدوا أمامهم شعوبا متنافرة يكره بعضهم بعضا.. وجدوا حكاما متنابذين بأسهم بينهم شديد.. لا تجمعهم مصلحة مشتركة ولا هدف نبيل. إنما تحركهم الأطماع الشخصية والأهواء الرخيصة والمنافع الباطلة. كل منهم يكد للآخر ويدبر له المؤامرات. ويتحالف مع العدو المشترك ضد الأخ والصديق.. كان حكام ذلك الزمان أشبه بجزر منعزلة فى محيط من العدا.. لا يربط بينها خيط يعصمها من الماء.. وعندما تتعمق فى تاريخ هذه الفترة الكالحة من تاريخ المسلمين فسوف تجد صفحات وأحداثا تثير فى نفسك القرف من تصرفات الحكام الخونة الذين أعماهم الجهل عن رؤية الخطر الذى يزحف عليهم.. وقد تذهب بك الدهشة مبلغا عظيما إذا عرفت أن خليفة المسلمين العباسي (الناصر) بعث إلى جنكيزخان يستحثه على القدوم إلى ديار الإسلام ليطيح بدولة خوازم شاه الإسلامية بعد أن أعيته الحيل والدسائس فى القضاء عليها (!!).

هذا هو الواقع المؤسف الذى يخجل كثير من المؤرخين عن الجهر به. وهو خجل ليس له مبرر سوى إخفاء الحقيقة عن عيون المسلمين المعاصرين، وتركهم أمام أحداث لا يعرفون لها تفسيرا ولا تبريرا فيقعون فى تيه الجهالة والضياع.

لماذا لانسرد الحقائق واضحة جلية أمام جماهير المسلمين حتى يعرفوا أسباب العلل والأمراض التى أطاحت بمجد الدولة الإسلامية وجعلتها طعمة للصليبيين تارة

والمغول تارة أخرى.. لماذا لا نقول لهم إن نكبة المسلمين أينما كانت في حكامهم الذين سيطرت عليهم شهوة الحكم حتى دفعت بهم إلى الدس والكيد لإخوانهم. بل والاتصال بالعدو المغولي وتأليبهم على شركائهم في الدين، وإغرائه للقدوم ودك معاقل الإسلام.

إنها حقائق مرة كالعقم.. سوداء كالليل البهيم.. ولكنها يجب أن تعرف.. حتى نتخذ منها العبرة ونحن نعيش الحاضر.. ونتطلع إلى المستقبل (!!).

الحق بالملك على عرشه
الملك

الملك
سليح الملك

المملوك سليل الملوك:

سأفنى بوعدى وأعرض عليك الأقاويل التى أحاطت بحياة الملك المظفر (قطز) وجعلت منه سليل الملوك فى دولة خوارزم، والإرهاصات التى تنبأت له بأنه سيملك مصر ويهزم التتار، وسأترك لك حرية النظر فيها، فربما وجدت فيها قليلا من المتعة، وكثيرا من المبالغة، ولكنها فى جميع الأحوال وردت فى كتابات المؤرخين الكبار الذين قدموا لنا تفاصيل هذه الفترة المشحونة بالأحداث، وكانوا من الأمانة بحيث سجلوا كل ما تلقفته أسماعهم من روايات، ولكنهم لم يشقوا على أنفسهم بتمحيص هذه الأوقاويل لتقرير نصيبها من الصدق أو الاختلاف. فلم يكن التحقيق التاريخى من سمات تلك العصور.. فقد نسبوا إلى قطز قوله إنه رأى فى صباه الرسول ﷺ فى المنام يبشره بأنه سيملك مصر ويكسر التتار(!!) ونسبوا إليه أيضا أنه من أبناء الملوك قبل أن يباع فى أسواق النخاسة(!!).

ومثل هذه الروايات تكشف ولع المؤرخين بترديد تنبؤات ليس لها دليل سوى اعتراف صاحبها، وربما كانت من أختلاق الرواة للملوك والحكام بعد أن يتركوا السفح ويصلوا إلى قمة السلطة، مثل قصة الكرة التى وقعت فى حجر عمرو بن العاص وهو يشاهد مباراة فى الكرة كانت تجرى بين الرومان فى أحد ملاعب الإسكندرية، فى العصر الجاهلى، وكانت الأسطورة الرومانية تزعم أن من تقع الكرة فى حجره يملك مصر، فلما وقعت فى حجر عمرو، التف حوله السادة الرومان هازئين ساخرين من هذا البدوى العربى الذى سيملك مصر(!!) ولا يخفى عليك مغزى هذه الرواية فى التشفى من غطرسة الرومان، وأيلولة مصر إلى الرجل الذى سخروا منه(!!).

تقرأ شيئا من:

هذا القبيل عن بعض المماليك الذين كانوا فى صحبة سيدهم الأمير نجم الدين أيوب أثناء إقامته الجبرية فى حصن (كيفما) بالعراق، وكيف أن عرافا ضريراً تنبأ لهم بأنهم سيملكون مصر.. وتحققت النبوءة وتوالى على حكم مصر أيك وبببرس وقلاوون.. وستجد نفس التنبؤات فى قصة (قطز) وكأنما أوتى هؤلاء العرافون قدرة على اختراق الحجب، وكشف المستقبل، بل تجد من يفسر الأحداث التاريخية وكأنها تجرى بإرادة الموتى، فقالوا إن مصرع قطز بعد عام واحد من ولايته إنما يرجع إلى كونه على مذهب الأحناف، وليس على مذهب الإمام الشافعى الذى وصفوه بأنه «صاحب مصر» والذى يطيح بأى حاكم يخالف مذهبه (!!) وينقل لنا المؤرخ بن إياس فى (بدائع الزهور) قول الإمام أبى شامة: ما جلس سلطان على كرسي مملكة مصر، وكان متقلدا بغير مذهب الإمام الشافعى، رضى الله عنه، إلا عزل سريعا، أو قتل، وقد جرب ذلك فى الملك المظفر قطز، فإنه كان حنفيا، فلم يمكث إلا يسيرا وقتل، وهذا سر الإمام الشافعى، رضى الله عنه، لأنه صاحب مصر (!!).

ولا يخفى عليك ما فى قول أبى شامة من تهافت، وأنه من وحى تعصبه لمذهب الشافعى، وانتقاصه لمذهب أبى حنيفة، مع ثقنتنا، التامة من براءة الإمامين العظيمين من هذا التعصب المقيت، واستخدام اسميهما فى صراعات مذهبية تافهة. ومع ذلك نقل ابن إياس الفرية دون تعليق.

بنت البهلوان:

وإذا كان المؤرخون قد نسبوا إلى قطز أنه سليل الملوك، فقد سبق لهم ذلك مع شجرة الدر، وقالوا إن أبها الملك أوزبك البهلوان، الذى كان ملكا على أذربيجان أثناء الهجمة المغولية. وأمها الأميرة فاطمة خاتون.. وأنها تاهت فى زحام الحياة أثناء الهوجة

التي عمت البلاد.. حتى باعها تجار الرقيق إلى الأمير نجم الدين أيوب وهو في حصن «كيفاء»، ومن هناك تعرفت إلى المملوك (أيك) الذي صار زوجها فيما بعد.

فهل كان هؤلاء المماليك في حاجة إلى اختلاق قصص ترفع نسبهم إلى الملوك قبل أن يصيروا عبيدا؟؟

لقد قلنا إن ظهور المماليك على مسرح الحياة السياسية إنما كان نتيجة عوامل داخلية في بلاط الخلفاء وحكام الأقاليم الإسلامية، وأن اعتماد الخلفاء العباسيين على المماليك في بناء الجيوش دفع بهؤلاء الجنود إلى أعلى المناصب العسكرية، ومن ثم تمكنوا من الاستيلاء على حكم الولايات، وورثة أسيادهم الذين دب فيهم الضعف والهزال، وقلنا إن ظهور الخطر الصليبي ومن بعده الخطر المغولي، أدى إلى ازدياد الحاجة إلى المماليك الذين تحمّلوا مسؤولية الدفاع عن مصر والشام فقاموا بالمهمة خير قيام، وكان قطز وبيبرس وقلاوون أبرز نجوم هذه الطبقة العسكرية الحاكمة، ومع أنهم بلغوا قمة الحكم بسواعدهم وسيوفهم وجهادهم، إلا أنهم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بمهانة أصولهم في مجتمعات طبقية تعطي للأصول والأعراف اهتماما بليغا، ولهذا راحوا يبحثون لأنفسهم عن أنساب راقية في البلاد التركية التي جاءوا منها قبل أن يمسهم الرق.

فقالوا عن (قطز) إن اسمه الأصلي محمود بن مودود وقالوا عن أمة إنها ابنة السلطان علاء الدين محمد أعظم سلاطين دولة خوارزم، وأنها أخت السلطان جلال الدين منكبرتي آخر سلاطين هذه الدولة التي لمعت في تاريخ الإسلام كالشهاب.. ثم أصابها الفناء على أيدي المغول، وشاء سوء حظها أن تكون أول دولة إسلامية تدكها معاول المغول بسبب موقعها المتاخم للدولة التي أقامها جنكيز خان، ولا بأس من أن نعرض لتاريخ هذه الدولة لما لها من أثر في مجرى الأحداث أولا، ولارتباطها بتاريخ قطز ثانيا.

ما وراء النهر:

كانت إمارة خوارزم التركية تقع فى المنطقة المجاورة للبحيرة التى تحمل نفس الاسم، والتى أطلق عليها المسلمون اسم بلاد (ما وراء النهر) والمقصود نهر جيحون الذى وصلته جيوش المسلمين أثناء الفتوحات الكبرى، وتسكنها الشعوب التركية التى اعتنقت الإسلام وتكونت منهم جيوش الدولة العباسية نظرا لما يتمتع به الترك من قوة جسدية وقدرة على القتال والصبر على الشدائد، أما نسائهم فقد تسللن إلى بلاط الخلفاء لما يتمتعن به من جمال مبهر، وصرن أمهات لعدد من الخلفاء أشهرهم (المعتصم) ابن هارون الرشيد الذى استكثر من شراء المماليك الترك، وجعلهم عصب جيشه وصارت لهم صولة ونفوذ فى الدولة العباسية حتى تمكن فريق منهم - الأتراك السلاجقة - من دخول بغداد بزعامة طغرلبك عام ٤٤٧هـ وأصبحوا أصحاب الكلمة والسلطان فى دولة الخلافة، وتحول الخليفة بجانبهم إلى شيخ معدوم الحول والطول.

وفى عهد ملكشاه أعظم سلاطين الدولة السلجوقية، كان فى بلاطه موظف تركى يقوم بمهمة الساقى اسمه (نوشتكين) انتدبه على إمارة خوارزم ولكن ابنه قطب الدين محمد استطاع أن يتوسع على حساب الإمارات المجاورة حتى صارت الدولة فى عهد ابنه علاء الدين تكش دولة عظيمة تمتد حدودها إلى الهند وفارس وأذربيجان، وتتأخم حدود المغول فى الشرق فى الوقت الذى بلغت فيه دولة السلاجقة مرحلة الاحتضار وفى عام ٥٩٠هـ. قضى الخوارزميون على آخر ملوك السلاجقة، واسمه طغرلبك، ومن سخرية القدر أن يكون هذا اسم أول ملوكهم، واسم آخر ملوكهم، وتزوج علاء الدين (تكش) من (تركان خاتون) التى تنتسب إلى قبائل الكانكالى التركية ذات العصبية الكبيرة.

فى عهد علاء الدين (محمد) خوارز مشاة وقع حادث بشع كان سببا مباشرا فى استفزاز جنكيز خان، وخروجه من مكمته لتحطيم معالم دولة خوارزم حتى جعل منها أطلالا .. فبقد بعث جنكيزخان بوفد من أتباعه يتكون من ثلاثة تجار مسلمين محملين بالهدايا إلى علاء الدين محمد خوارزمشاة، ومعهم رسالة يعرض فيها المسألة وحسن الجوار ويقول فيها : أنت عندى مثل أعز أولادى وغير خاف عليك أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وأنت أخبر الناس بأن بلادى ماثرات العساكر ومعادن الفضة وأن فيها لغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار فى الجبهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد.

تهديد وإهانة :

وإذا كان ظاهر الرسالة يحمل معنى الرغبة فى تطبيع العلاقات التجارية، إلا أن خوارز مشاه رأى فيها نغمة التهديد والإهانة لأنه وصفه بأنه (ابنه) .. واستخدم علاء الدين حسن السياسة والكياسة ليتجنب ثورة الوحش المغولى، فكظم غيظة، وأعاد الرسل يحملون الرد بقبول الاتفاق على فتح طرق التجارة بين البلدين، ولكن الشك ساد العلاقات بينهما، إلى أن وصلت قافلة مغولية على رأسها أربعة تجار إلى مدينة (أوترار) الخوارزمية، وتصور علاء الدين أن هؤلاء التجار ليسوا سوى جواسيس، فأمر حاكم أوترار بإعدامهم وسلب أموالهم، وما أن علم جنكيز خان بما جرى لأتباعه حتى استشاط غضبا واتخذ قراره بإزالة دولة خوارزمشاة من الوجود.. وتم له ما أراد.. وانطلقت الجيوش التتيرية تقتل البشر وتدمر المدن التى كانت منارات الحضارة والثقافة الإسلامية مثل بخارى وسمرقند ونيسابور ومرو، وفى خلال بضع سنين كانت دولة خوارز مشاة قد تحولت إلى خرائب، ومات علاء الدين محمد فى جزيرة نائية فى بحر قزوين ووقعت أمة ترکان خاتون فى قبضة المغول فأخذوها معهم إلى بلادهم، ولاقى ابنه جلال الدين منكبرى الأهوال من أجل إعادة الروح إلى الدولة بعد

انسحاب جنكيز خان إلى عاصمة ملكه، ولكن العواصف كانت أقوى من جلال الدين حتى أصبح شريدا يبحث عن مأوى، وانتهى به التجوال إلى جبال الأكراد، ولما هموا بقتله - وهم لا يعرفونه - كشف عن شخصيته وهمس في أذن كبيرهم «أنا السلطان فلا تستعجل في أمرى» فصحبه الرجل إلى بيته، وهناك طلب منه جلال الدين أن يعاونه على العودة إلى بلاده، فتركه الكردي في رعاية زوجته وخرج لإحضار بعض خيوله ليستعين بها في إرجاعه إلى بلاده، وبينما كان صاحب البيت غائبا عن منزله، أتى كردي آخر وبيده حربه، وقال للمرأة: ما هذا الخوارزمي.. وهلا تقتلونه؟ فقالت: لاسبيل إلى ذلك وقد أمنه زوجي، وعرف أنه السلطان فقال الكردي: كيف تصدقونه بأنه السلطان، ثم طعنه بالحرية طعنة واحدة قضت عليه.. وكانت تلك نهاية آخر سلاطين الدولة الخوارزمية، وقد نعاه محمد النسوي المؤرخ وكاتب سيرته بهذه الأبيات:

يا من أسال رقاب الكاشحين دما

من بعد فقدك أبكيت العيون دما

لئن أتاح صروف الدهر ساحته

فانظر إلى الملك والإسلام لاجرما

فالدين منثلم والملك منهدم

وظل حيل العلى والمجد منجدا

وقد وصفه ابن الأثير في (الكامل) بأنه كان سيئ السيرة قبيح التدبير لملكه، لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه، ونازعه الملك، وأساء مجاورته، أما النسوي فقد وصفه بأنه كان أسدا ضرغاما، أشجع فرسانه إقداما، وكان حليما لا غضوبا ولا

شتاما، وقورا لا يضحك إلا تبسما، ولا يكثر كلاما.

ويقول عنه بعض المؤرخين الأوروبيين إنه كان يميل إلى الأبهة، شديد الولع بالخمير والموسيقى حتى فى أشد ساعاته حرجا، وكانت جيوشه، التى لا يدفع أرزاقها تعيش على السلب والنهب.

وفى رأى بعض المؤرخين المعاصرين أن الدولة الخوارزمية كانت أقوى دول المسلمين بالشرق، ولكن ملوكها كانوا فى غاية الفساد والاستبداد، حتى أنهم كانوا لا يسمحون لكبير أو لصغير بمخاطبتهم إلا وهو جالس على الركبتين أمامهم، وبلغ من فساد السلطان جلال الدين، أنه كان له مملوك يحبه جدا شديدا. فلما مات حزن عليه حزنا لم يسمع مثله، وأمر الناس بالخروج والنواح واللطم عليه، وأبقاه من غير دفن، فكان يستصحب رمته معه حيث سار، ولا يقدر على فراقه بعد موته، وكان لا يترك اللطم والبكاء عليه، وإذا قدم إليه الطعام، أرسل إليه منه، فلا يجرؤ أحد أن يقول إنه ميت، بل يحملون إليه الطعام، ويقولون إنه يقبل الأرض، ويقول إنه الآن أصلح مما كان (!!).

روايات المؤرخين:

أما عن قرابة (قطز) للسلطان جلال الدين خوارز مشاه، فإنها لم ترد إلا على لسان قطز نفسه دون أن يسوق دليلا على صحتها، وأما المناسبة التى دفعته إلى ذكرها فتعود إلى صدر شبابه، عندما كان مملوكا لأحد أعيان دمشق، وحدث أن ضربه سيده ولعن أباه، فعزت عليه نفسه، وأخذ يبكى بكاء مرا، وعندما حاول أحد زملائه أن يطيب خاطره، أدلى إليه بالسر وهو أن اسمه محمود بن مودود وأنه ابن أخت السلطان جلال الدين .

وقد تناقل المؤرخون المسلمون هذه القصة ونسبوها إل مصادر متعددة تنتهى كلها

عند قطز نفسه. فقد نقلها (ابن كثير) في (البداية والنهاية) المجلد السابع الجزء الثالث عشر صفحة ٢٣٩ - عن الشيخ قطب الدين اليونيني في كتاب (الذيل على المرأة) عن الشيخ علاء الدين علي بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير كاتب السر في أيام الملك الأيوبي الناصر صاحب دمشق. ونقلها (العيني) في (عقد الجمان) عن أبي الفوارس، وهو محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن أبي الفوارس، العدل أمين الجزرى، وأما صاحب (النجوم الزاهرة) المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى فقد نقلها عن الشيخ شمس الدين الجزرى، وهو غير ابن الأثير الجزرى صاحب (الكامل) والمتوفى فى عام ٣٠هـ. فالأول شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبدالعزيز بن الجزرى صاحب التاريخ الكبير والمتوفى عام ٧٣٩هـ. وقد لاحظت أن كل هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على رواية المولى تاج الدين بن الأثير الذى نقل القصة عن حسام الدين البركة خانى أحد زملاء قطز وقت أن كان صغيرا يسرح القمل فى رأسه، ويقوم باستخراج القمل من رأس قطز مقابل فلس أو صفقة على كل قملة (!!).

وسوف أكتفى بما ذكره (العيني) ففيه الكفاية وقال:

حكى ابن أبي الفوارس قال: كان هذا قطز مملوكا لابن العديم، أو قال لابن الزعيم، رجل من دمشق، فضربه يوما وشتمه، فبكى بكاء كثيرا وامتنع عن الأكل فى ذلك اليوم. فقال له الفراش: هذا البكاء كله من ضربة أور ضربتتين، فقال يا خارج: والله ما أبكى للضرب، ولكن للعتة أبى وجدى، وهما خير من أبيه وجده، فقال له الفراش: ومن أبوك وجدك، وما كانا إلا كافرين؟ فقال: لا والله، بل أنا مسلم إلى عشرة جدود وأنا محمود بن مودود ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه السلجوقى، ولا بد أن أملك مصر وأكسر التتار.

وحكى تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي قال: لما ملك الملك المظفر قطز، قال لى حسام البركتخانى: والله لا يكسر التتار غيره، فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: إني وإياه مملوكا صبيان عند الهيجاوى، وكان على قطز قمل كثير، فكنت أسرح رأسه وأخذ له كل قملة بفلس أو بصفعة، فسرحت رأسه يوما وصفعته صفعا كثيرا، ثم تنهدت فقال: ما بالك؟ فقلت: أتمنى على الله إمرة خمسين فارسا، فضحكت وصفعته صفعة قوية، وقلت له: من أين لك هذا؟.

قال: رأيت فسكت، وكنت أعرف منه الصدق، وما أشك في أنه يكسر التتار، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى خرج وكسر التتار.

وقال القاضى تاج الدين: ثم رأيت حسام الدين البركتخانى المذكور بمصر بعد كسر التتار، وهو أمير خمسين فارسا.

وقال ابن كثير: وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى الذيل عن الشيخ علاء الدين (على) بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير، كاتب السر فى أيام الملك الناصر صاحب دمشق، قال: لما كنا مع السلطان الناصر بوطأة برزة، كانت البريدية يخبرون بأن المظفر قطز قد تولى سلطنة الديار المصرية، فقلت ذلك للسلطان. فقال: اذهب إلى فلان وفلان وأخبره بهذا، فلما خرجت من عنده لقينى بعض الأجناد فقال لى: جاءكم الخبر من الديار المصرية بأن قطز بعض الأجناد تملك. قلت: ما عندى من هذا علم، وما يدريك أنت هذا؟ فقال:

بلى والله إنه سبلى المملكة ويكسر التتار. فقلت: من أين تعلم هذا؟ قال: كنت أخذته وهو صغير وعليه قمل كثير، فكنت أفليه وأهينه. فقال لى: ويلك إيش تريد أن

أعطيك إذا تملك الدير المصرية. فقلت: أنت مجنون، فقال: لا والله لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقال لي: أنت تملك الدير المصرية وتكسر التتار، وقول رسول الله عليه السلام حق لاشك فيه. فقلت له حينئذ وكان صادقا: فأريد منك إمرة خمسين فارسا، ووفى له بالوعد وهو الأمير كمال الدين البركختاني.

قال ابن الأثير: فلقيني بالدير المصرية بعد أن تأمر، فذكرني بما كان أخبرني عن المظفر، فذكرته، ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك.

وفي تاريخ النويري: وحكى عز الدين بن أبي الهيجاء قال: حدثني بلقاق عند بدر الدين بكتوت الأتابكي قال: كنت أنا وقطرز وبيبرس البندقداري خشداشية في حال الصبا، فرأينا يوما منجما في بعض الطرقات بالدير المصرية فوقفنا عليه، فقال له قطرز: أبصر لي، فضرب (بالرمل) وجعل يصوب فيه النظر، قال: إلى هذا العجب، فقال له: فقال: أنت تملك مصر وتكسر التتار، فضحكنا منه، ثم قال له بيبرس: أبصر لي، فضرب وجعل يصوب النظر إلى الآخر ويتعجب. فقال له: قل. فقال: أنت أيضا تملك مصر ويطول ملكك، فضحكنا، ثم قلت له: فأبصر لي، فضرب وقال: أنت يحصل لك إمرة كبيرة وهذا سببها، وأشار إلى بيبرس البندقداري، ويقتل هذا وأشار إلى قطرز، فوالله ما خرم من قوله ذرة، وحكى ركن الدين الجزري أستاذ الفارس أقطاي قال: كنا عند قطرز في أول دولة أستاذه الملك المعز أيبك، وقد حضر عنده منجم مغربي موصوف بالحذق، فأمر من كان هناك بالانصراف إلا أنا. وقال للمنجم: اضرب وجعل يعد على أصابعه وقال: يطلع لي اسم فيه خمسة حروف بلا نقط، وأبوه أيضا كذلك، وأنت فاسمك ثلاثة أحرف، فتبسم قطرز وقال له: لم

لا تقول محمود بن مودود؟ فقال المنجم: هو والله هذا. قال قطز: أنا محمود بن مودود، أنا الذي أكرس التتار وأخذ بثأر خالي خوارزم شاه منهم.

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

الخطوات
التي
تتخذ
في
العمل

مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك

مسرحية الخلافة:

نجح مسلسل «الفرسان» (*) الذي عرضه التلفزيون طوال شهر رمضان، في تحريك اهتمام الناس بالعصر المملوكى الملىء بالتناقضات، والذي تختلط فيه الانتصارات بالهزائم، والأفراح بالدماء، والمظالم والشورور بثمار النهضة العلمية والأدبية التي حمل لواءها سلاطين المماليك، رغم عدم انتمائهم إلى العربية جنسا ولغة، وصار اسم «قطز» يتردد على ألسنة المصريين محاطا بمشاعر العطف، والتفتت حوله القلوب وهو يتقدم إلى دحر التتار في عين جالوت، وذرفوا عليه الدمع وهو يمضى إلى مثواه الأخير في البرية، محمولا على الأعناق بعد أن لقي حتفه غدرا بسيف زميله وشريكه في الجهاد «بيبرس» فلم يتمتع بثمار النصر المؤزر الذي تم على يديه، وارتفعت به هامة الإسلام والمسلمين، ونجح في كسر طوفان المغول، وانتصر على الجيش الذي لم يقهر من قبل.

لقد بكى المصريون المعاصرون على «قطز» كما بكى أجدادهم عليه، عندما خرجوا إلى شوارع القاهرة ليستقبلوه عند عودته ويضعوا على رأسه أكاليل المجد والفخار، ولكنهم لم يجدوه وسمعوا همهمات وهمسات تقول إن سلطان مصر مات في طريق العودة، وأن «بيبرس» قد حل محله على تخت السلطنة.. وحرار المصريون في تفسير هذا اللغز، ولكن ما لبثت الحقيقة أن تكتشف لهم، وعلموا أن «قطز»

(*) مسلسل الفرسان عرض على شاشات التلفزيون في كافة البلاد العربية، خلال شهر رمضان ١٤١٥ هـ - الموافق شهر فبراير ١٩٩٥ م - وهو من تأليف الأستاذ سامى غنيم، وإخراج حسام الدين مصطفى، واشترك في بطولته نخبة من كبار النجوم.

راح ضحية مؤامرة دبرها «بيبرس» تصفية لحسابات قديمة بينهما، وليقطع بيبرس دابر السلطان قبل أن يدخل القلعة، ويشدد سلطانه تياها بانتصاره العظيم.

وكعادة المصريين:

قبلوا الأمر الواقع، وارتفعت أكفهم بالدعاء للسلطان الجديد فى صلاة الجمعة، ويترحمون فى سرهم على السلطان الشهيد، دون أن تعتربهم دهشة من هذا المسلك الدموى، فقد ارتبط تاريخ الممالىك بالدم منذ اللحظة الأولى التى حكموا فيها مصر، فأول سلاطينهم عز الدين «أىبك» لقى مصرعه ضربا بالقباقيب على يد زوجته الجسور الغيور «شجرة الدر» التى لحقت به بنفس الأسلوب، وأىبك نفسه دبر عملية اغتيال الأتابك «قائد الجيش» فارس الدين أقطاى فى دهاليز القلعة، والذى نفذ عملية القتل هو «قطز» نفسه أصدق أصدقاء أىبك وحليفه فلماذا الدهشة والاعتقال، والقتل والتآمر والخيانة هى نشأته، كان الغدر يجرى فى عروق الممالىك مجرى الدم فى الشرايين، فلا غرابة إذن تأمر بيبرس على قتل قطز، ولو لم يفعل لفعلا قطز بعد عودته إلى القاهرة، ودعك من العبارات الحارقة التى وردت على لسان قطز وهو يلفظ أنفاسه، وكيف أنه كان ينوى أن يجعل بيبرس خليفة وبديلا عنه، فمثل هذه المواقف الدرامية هى من صنع كتاب الأدب لإثارة عواطف القراء والمشاهدين، ولا أصل لها فى الواقع التاريخى، ولا وجود لها فى عرف الممالىك الذين قام حكمهم على السيف.. والسيف وحده، وليس أدل على ذلك من أن كبير الممالىك فارس الدين أقطاى المستعرب «وهو غير أقطاى القتيلى سلفا» عندما وجد أمامه جثة قطز، والدماء لاتزال تنزف منها سأل: من الذى قتله؟ فبادر بيبرس بالرد: أنا.. فقال له

الرجل الذى يطبق العرف المملوكى، دون تردد: إذن تقعد محله (!!) أى يصير سلطانا على مصر بمقتضى النظام المملوكى الذى يرى أن الحكم لمن غلب (!!).

طبيعة نظام الحكم المملوكى:

قامت شرعية الحكم فى النظام المملوكى على حد السيف، وليس على أى قاعدة من القواعد التى قام عليها نظام الحكم فى الإسلام، مثل الشورى أو البيعة أو رضا الرعية. وعلى الرغم من أن النظرية السياسية للدول الإسلامية ظلت تمثل الاطار العام لكل الدول التى قامت فى أنحاء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى، فإن طبيعة الممالك، جعلت لهذه الدولة خصائص ميزتها كظاهرة متفردة، ولم تكن النظرية السياسية لهذه الدولة قائمة على مبدأ الاختيار، أو التفويض الشعبى، أو حتى مبدأ الوراثة الذى قام عليه حكم الأمويين والعباسيين، بل قامت على السلطنة تطبيقا لمبدأ «الحكم لمن غلب» وقد أدى هذا المبدأ إلى اعتماد سلاطين الممالك فى حكمهم على قوة ذات جناحين هما:

القوة العسكرية مجسدة فى الممالك الذين يشتريهم الأمير من أسواق الرقيق، ويتولى تدريبهم عسكريا ليصيروا جيشا يسانده فى الوصول إلى قمة السلطان، ثم الحفاظ على العرش من طمع الآخرين الذين يتطلعون إلى نفس الحق.

الواجهة الدينية التى حرص السلاطين على التخفى وراءها.. ومن هنا كان حرص بيبس على اصطناع خلافة عباسية فى مصر، بعد أن أسقطها التتار فى بغداد عام ٦٥٦ هـ. وما كان منه إلا أن استدعى لقيطاً عباسياً نجاً من مذبحه بغداد، وألبسه لبوساً روحياً فخيماً وأسكنه القلعة، وخصص له المرتبات، وليس له من عمل سوى

أن يمنح الشرعية للسلطان الجديد.. مع أن هذا الخليفة المصطنع لم يستمد شرعيته إلا من تابعه.. السلطان.. (!!).

ولتفسير هذا التناقض، لا بد أن نذكر أن بيبرس لم يفعل ذلك من باب الواجهة أو المظهرية، وإنما انسياقا وراء الفكرة التي سيطرت على نفوس المسلمين منذ قرون حول فكرة الخلافة، والتي بقيت محتفظة بمكانتها الروحية بعد أن فقدت سلطانها الفعلي، فالسلطان مهما بلغ من القوة والجبروت، لا يكون سلطانا إلا إذا حصل على التفويض الشرعي من خليفة بغداد، وبدون هذه «البركة» لا يدعى له على المنابر، ولا يضرب اسمه على السكة.

وعلى أساس هذا الارتباط العاطفي، تصرف كافة السلاطين الذين استقلوا بما تحت أيديهم من ولايات، لقد جهروا باستقلالهم الفعلي عن دولة الخلافة، دون أن يجرؤوا على فسخ علاقتهم الروحية والشرعية بالخليفة القابع بين جدران قصره في بغداد..

حركة إحياء الخلافة العباسية:

لقد تسلطن «بيبرس» وسكن القلعة، وأصبح حاكما استبداديا يتصرف في شؤون مصر كما يتصرف المالك في ملكة، ومع ذلك كان يشعر بهذا النقص، وأن عليه أن يكسب حكمه صفة الشرعية أمام المسلمين، ليتسنى له القيام بواجب الجهاد، وجمع الأموال، وتنفيذ أحكام الشرع، ولكن.. من أين يحصل على هذه الشرعية والخلافة قد زالت من بغداد؟ (!!)، فكان عليه أن يوجد الخلافة والخليفة أولا.. ثم يكسب تأييدهما ثانيا.. فكانت حركة إحياء الخلافة العباسية في مصر ليظهر أمام

العالم الإسلامي - الذي كان يواجه معركة حياة أو موت - في صورة البطل المجاهد الذي يواجه أعداء الإسلام: الصليبيين والمغول.

ولم تكن فكرة إحياء الخلافة الإسلامية وليدة أفكار بيبرس، فقد سبقه إليها قطز بعد انتصاره في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ وذهابه إلى الشام، وهناك أخبره الأمير العربي عيسى بن مهنا أنه يؤوي في بيته أميراً عباسياً، يدعى أبو العباس أحمد، استطاع الهرب من أيدي المغول، فقال له قطز: إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله (!!) وكانت فكرة قطز أن يعيده إلى عرش آبائه في بغداد، بعد أن يطهرها من رجس التتار، ولكن إرادة الله كانت أقوى من أحلام قطز، فقد مات، ولكن فكرته لم تمت، وتبناها بيبرس في العام التالي لانفراده بحكم مصر، فأرسل يستدعي هذا الأمير المجهول، ولكن يبدو أنه كان هناك أكثر من ممثل عباس على استعداد للقيام بهذا الدور. فقد فوجئنا برجل آخر اسمه «أبو القاسم» زعم أنه ابن الخليفة «الظاهر»، وما إن تلقى الرجل الدعوة حتى هرب إلى مصر، وخرج بيبرس لاستقباله عند المطرية، وسار في ركابه في مشهد من أشد المشاهد التاريخية إغراقاً في الكوميديا يرويه كتاب التاريخ القدامى على النحو التالي:

استقبال باهر للخليفة:

وصل أبو القاسم أحمد إلى القاهرة في ٨ من جب ٦٥٩ هـ، فأعد السلطان العدة لاستقباله، وخرج للقاءه، ومعه الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا، وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر، والعلماء والمؤذنون والشهود، واليهود يحملون التوارة، والنصارى يحملون الإنجيل، وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابته، ولما وقع نظر الظاهر بيبرس على هذا الأمير العباسي

ترجل إجلالا وتقدم فعانقه، ثم ركب الخليفة وهو لابس «السواد» شعار العباسيين، وركب معه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى القلعة، وهنا تأدب السلطان «الظاهر» ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسى، بحضرة الخليفة (!!).

أرأيت إلى هذا الأدب الزائد عن الحد من جانب السلطان المهذب الذى افترش الأرض فى حضرة الخليفة الذى أتقن دوره تماما.. وبعد بضعة أيام قضاهما الخليفة المرتقب للراحة من وعناء السفر، ارتفعت الستار عليه وهو يتصدر قاعة الأعمدة بالقلعة، وحوله القضاة والعلماء والأمراء، ومعهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام وسائر أرباب الدولة والأعراب الذى صاحبوا الخليفة فى رحلته إلى مصر، وذلك لإثبات نسبه وتقرير بيعته خليفة على المسلمين. ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس كالتلميذ المؤدب بين يدي أستاذة، وأستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد وسئلوا عنه:

- هل هذا هو الإمام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد؟ فأجابوا: نعم.. فقبل قاضى القضاة شهادتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة (!!).

وعلى هذا صار الرجل خليفة للمسلمين بشهادة مجموعة من العربان، شهدوا بصحة نسبه دون أن يقدموا لهؤلاء القضاة دليلا واحداً على صحة ما يقولون.. ومن حقنا أن نتخيل الظروف التى تمت فيها هذه الشهادة، وهى ظروف تفوح منها رائحة البذل والبرطلة «بالتعبير المملوكى» ورغبة الدولة فى استجداء أى شهادة- ولو زور- تحقق لها المرام.. ورغم أن جميع المؤرخين أجمعوا على صحة النسب، إلا أن من حقنا نحن أبناء القرن الخامس عشر الهجرى أن نطعن عليها، ونجرح أقوال الشهود..

ونقطع بعدم وجود صلة بين هؤلاء العربان الذين كانوا يسيحون فى الفيافى، وبين أمير يعىش فى قصور بغداد المغلقة على الأسرار! ومع ذلك علينا أن نتابع هذا المشهد الذى جرى فى قاعة الأعمدة بالقلعة.

السلطان يبايع الخليفة:

قام بعد ذلك السلطان بىبرس وبايع الخليفة «على كتاب الله وسنة رسول الله والأمراء بالمعروف، والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله. وأخذ الأموال بحققها، وصرفها فى مستحقها، ثم نهض شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، بعد السلطان بىبرس وبايع الخليفة، ثم تبعه الأمراء وكبار رجال الدولة، ثم الناس على اختلاف طبقاتهم، وتلقب أبو القاسم أحمد بلقب «الخليفة» المستنصر بالله.

وبعد أن انتهى هذا المشهد، الذى قام فيه السلطان بمبايعة الخليفة- أو تعيينه إذا شئت الدقة- جاء الدور على الخليفة ليقلد «السلطان الملك الظاهر بىبرس البلاد الإسلامية. وما يضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار».. هكذا مرة واحدة صار الخليفة فى غاية الجود والكرم حتى أنه منح بىبرس حق إدارة شئون البلاد الإسلامية وما يضاف إليها (!!) وكتب السلطان إلى النواب والحكام فى سائر الأقاليم التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله، والدعاء للسلطان من بعده، وأن تنقش السكة باسميهما.

وفى ٤ من شعبان ٦٥٩هـ ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة الأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة، وهناك ألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بىبرس «خلعة السلطنة» وهى: عمامة سوداء مذهبة مزركشة وجبه حرير

سوداء ودراعه «جبة من الصوف مشقوقة المقدم» بنفسجية وطوق ذهب، وقيد من ذهب «خلخال» وضع فى رجليه، وسيف منسوب إلى عمر بن الخطاب، ولواءان منشوران على رأسه، وسهمان كبيران، وترس، وفرس أشهب فى عنقه مشدة سوداء، وعليه كنبوش «برذعة» أسود.

ولسنا فى حاجة إلى أن نسأل عن مصدر هذه الهدايا الثمينة، وهل هى من مال الخليفة الذى خرج من دياره نافذا بجلده؟ أم أنها من نفحات بيبرس قدمها إلى الخليفة ليقدمها إليه فى حركة تمثيلية رائعة.

الخليفة يصدق نفسه:

وبعد أن تم قبول الهدايا، نهض فخر الدين بن لقمان - صاحب ديوان الإنشاء - فتلا تفويض الخليفة العباسى للملك الظاهر بيبرس، وذلك تقوية لعرشه وإثباتا لأحقية المماليك فى تولى شئون مصر (!!).

وهنا يتضح لك الغرض من هذه التمثيلية التى أدى أبطالها أدوارهم بإتقان فالغرض هو: إثبات أحقية المماليك فى تولى شئون مصر.. ذلك أن المماليك كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم أنهم مغتصبون.. وأنهم فرضوا أنفسهم على مصر دون استئذان أو قبول من أهلها.. فلجئوا إلى إخراج تمثيلية المستنصر بالله ليجدوا فيها غطاء شرعيا يبرر استبدادهم وتسلطهم على حكم مصر.

الطريف أن الخليفة صدق أنه خليفة بحق وحقيق، وأن سلطانه يشمل المعمورة كما كان يقول جده الأول أبو جعفر المنصور، وترى فى خطاب التفويض أن تصور

نفسه حاكما على أراض لم تحكمها الدولة العباسية منذ قرون.. بل ادعى لنفسه السيادة الشرعية على العالم الإسلامي، مع أنه لم يكن له بيت مال يعتمد على موارده ولا تحت تصرفه جيش ينفذ أوامره، وينفذ رغباته، كما أنه تدخل - وهو غريب عن الممالك - في الأمور الإدارية التي هي من اختصاص الحكومة المصرية القائمة على أساس النظام البيروقراطي (!!).

ولما فرغ صاحب ديوان الإنشاء من تلاوة التفويض، نهض السلطان وعليه الخلعة، وسار في طريقه إلى القلعة يتقدم موكب السلطنة حتى صار إلى باب النصر، ثم سار في طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة، ولك أن تتصور ثراء مصر ورخاءها من هذا المشهد وحده (!!) ومر بشوارع القاهرة الرئيسية، وتقدم السلطان الموكب، وتلاه الخليفة، فالوزير ابن حنا يحمل التقليد على رأسه، وتبعهم الأمراء وسائر الناس مشاة، بين مظاهر الابتهاج والانشراح، واصطف الناس على جانبي الطريق يكبرون ويهتفون ويسجل المقرئ: «وضع الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره، وأن يخلعها خلع الرضا، إلى أن خرج من باب زويلة، وسار إلى القلعة، فكان يوما مشهودا تقصر الألسنة عن وصفه.

ويعلق الدكتور على إبراهيم حسن على هذا المشهد فيقول: إن دعاء الشعب للسلطان بخلود أيامه وإعزاز نصره، وهذه الخلعة التي قيل عنها إنها خلعت من العداة قلوبهم ليدلنا على أن هذه الخلعة التي أفيضت على الظاهر ببيرس قد ساعدت إلى حد بعيد على تثبيتته على عرش السلطنة، وباعدت بين العدو الطامح وبين تحقيق آماله في الوصول إلى العرش، بل كان لها في نفوس عامة الشعب تأثير روحي، وهذا

كله قد ساعد على إخماد الاضطرابات، وتسكين الفتن التي نوى أمراء هذا العصر القيام بها في حكم بيبرس، وكتم الأحقاد، التي كانت تغلى بها صدورهم كالمراجل، وغلق الباب أمام البيت الأيوبي للعودة إلى مصر، كذلك كان لأنواع الملابس التي ظهر بها الخليفة في الموكب، أثر بالغ في محبة الشعب لشخص بيبرس والالتفاف حول عرشه، فقد ظهر الخليفة المستنصر بالله في ذلك اليوم لابسا «البردة» وعلى رأسه عمامة، وكان حاملا «القضيب».

قصة البردة والقضيب:

أما البردة، فيقول عنها القلقشندي إنها بردة النبي ﷺ التي اعتاد الخلفاء لبسها في المواكب، وهي شملة مخططة، وقيل كساء أسود مربع فيه صغر، وقد اختلف في وصولها إلى الخلفاء، فقيل: إن النبي قد وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التي أولها: بانت سعاد، ثم اشتراها معاوية بن أبي سفيان منه أو من ورثته بعشرين ألف دينار، وقيل: إن النبي أعطها أهل «أيلة» أمانا لهم، فأخذها منهم عبدالله بن خالد بن أوفى، عامل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية على أيلة، وبعث بها إليه، فظلت في خزائنه حتى آلت إلى أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس في بغداد إلى أن انتزعها السلطان سنجر السلجوقي من الخليفة المسترشد بالله العباسي، ثم أعادها إلى المقتدى بالله عند توليته الخلافة سنة ٥٣٥هـ، فاحتفظ بها من جاء بعده من خلفاء بني العباس حتى انفراط دولتهم سنة ٦٥٦هـ. والذي لم يذكره القلقشندي أن السلاطين نقلوا هذه البردة إلى الآستانة بعد أن فتح سليم الأول مصر عام ٩٢٣هـ.

ولو سلمنا بصحة المراحل التي مرت بها بردة النبي ﷺ، حتى استقرت في قصر الخليفة العباسي، فكيف نسلم بوصولها إلى حوزة الرجل الذي ادعى الانتساب إلى الخلفاء العباسيين (!!) ونحن نعرف حرص خلفاء المسلمين على العناية بالمأثورات النبوية الشريفة، فكانوا يحيطونها بكل وسائل الأمن والحماية، فكيف وصلت إلى يد هذا الأفاق (!!) ويزداد الأمر غرابة إذا تذكرنا حالة الاضطراب والخراب والدمار التي لحقت ببغداد أثناء الهجمة المغولية، وهل كان هذا الرجل حريصا على اختلاس البردة والقضيب من القصور المحترقة أكثر من حرصه على النجاة بحياته من المذبحة (!!).

ولعل في هذه الواقعة وحدها ما يكشف عن زيف هذه المسرحية التي أخرجها الظاهر بيبرس؛ لتخدم أغراضه في استمالة شعور المصريين، ولست أرى في الجبة التي ارتداها الخليفة المزيف إلا أنها من صنع خياط مصري بارع في تقليد القديم، ثم منحها بيبرس للخليفة ليظهر بها في المواكب ويضحك بها على ذقون المصريين الذين يصدقون مثل هذه الخزعبلات.

أكبر حاكم في العالم الإسلامي:

نجح بيبرس في تثبيت حكمه عن طريق خدعة الخلافة. واستقرت له الأمور، وظهر أمام العالم الإسلامي في صورة أكبر حاكم إسلامي، بعد أن صارت القاهرة مركز الثقل السياسي والديني والعسكري والثقافي بدلا من بغداد، وكذلك أغلق بيبرس الباب نهائيا أمام ملوك وأمراء الأيوبية، الذين كانوا حتى تلك اللحظة يطمعون في استرداد ملكهم وقد اغتصبه المماليك الأرقاء.. وانقطع أملهم في زحزحة هذا

المملوك بيبرس الذى تربى فى أحضانهم، ونشأ فى حوزتهم حتى صار نجما متألقا..
وقبل أن أسرد عليك أثر هذه الخطوة الذكية التى خطاها بيبرس فى مستقبل الدولة
المملوكية، يهمنى أن أسرد عليك ختام مسرحية الخلافة.

فجأة.. لمعت فى ذهن بيبرس فكرة إعادة الخلافة إلى بغداد.. وهى الفكرة التى
راودت قطز وهو فى الشام . ولم تتضح الأسباب التى جعلت بيبرس يفكر فى إعادة
الخلافة إلى بغداد بعد أن بذل النفس والنفيس من أجل إحيائها فى القاهرة، وهو
يعلم استقرار المغول فى العراق وإيران وغيرهما.

يرى بعض المؤرخين أن ذلك كان «قصداً منه فى تقرير ما تغير من القواعد،
 وإعادة الأحوال بدار السلام- بغداد- وممالك الإسلام على العوايد» أى أنه كان يبغي
إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، وجعل بغداد قاعدة للخلافة الإسلامية على النحو
الذى استقر عليه العالم الإسلامى على مدى خمسة قرون وربع قرن، وذكر البعض
الآخر أن بيبرس ساوره الشك فى قيمة ما أقدم عليه من الترحيب بشخص يزعم
الانتساب إلى البيت العباسى، فى عاصمة ملكه، وإقامة خلافة عباسية فى مصر.

وبدأ بيبرس فى تنفيذ فكرته، فاستدعى الخليفة المعين «الستنصر بالله» وعرض
عليه أن يذهب إلى بغداد لاستعادة ملك آبائه مع تجهيزه بالمال والسلاح وعشرة
آلاف فارس وإقامة نفسه خليفة فى بغداد، وخرج بيبرس مع الخليفة إلى دمشق،
ولكن أمير الموصل- وكان رجلا داهية- همس فى أذن السلطان بأن الخليفة إذا
استقر فى بغداد فسوف ينقلب عليك ويخلعك من السلطنة. فأوجس بيبرس فى
نفسه خيفة، فلم يجهز المستنصر إلا بعدد هزيل من الفرسان لا يتجاوز ٣٠٠ فارس،

ولم يكن من المستنصر إلا القبول بما يمن به السلطان وسار على رأس هذه الكتيبة، حتى إذا وصل إلى بلدة الرحبة على نهر الفرات، انضم إليه ٤٠٠ فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم أثناء هربه من بغداد، والتقى هناك بأمير آخر من أمراء العباسية الهاربين، اسمه أبو العباس أحمد على رأس ٧٠٠ فارس من التركمان، وسار الجيشان لتصفية جيوش المغول الجرارة حتى إذا وصلا بلدة الحديثة أطبقت عليهم جيوش التتار فأبادتهم، ولم ينج من المذبحة سوى ٥٠ شخصا. أما الخليفة المستنصر بالله فلم يعثروا له على أثر. وعندما علم بيبرس بما جرى للخليفة تأسف غاية الأسف، لأن ما بذله في سبيل خلافة عباسية في القاهرة «قد راح في البارد» على حد تعبير ابن إياس، وأبدى بيبرس الحزن الشديد على ضياع الأموال التي بذلها في سبيل إعداد هذه الحملة الخائبة، ومع ذلك لم يتردد بيبرس في إعادة إخراج نفس المسرحية بأشخاص آخرين، لقد ساقته إليه الأقدار الأمير العباسي أبو العباس أحمد الذي التقاه قطز في الشام. وجاء الرجل إلى مصر، وتكررت نفس المشاهد التي سبق أن عرفت دقائقها في الفصل الأول. وأطلق على نفسه لقب «الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين» وأسكنه بيبرس بالبرج الكبير بالقلعة وأغدق عليه النفقات والكساوى، وأحاطه بكل مظاهر الإكرام والإجلال والمهابة.. ولكن إلى حين.

الفصل العاشر

١٠

الحق اليك على عيش حظه
مسك الختام

مسك الختام:

فى ذلك اليوم الحزين.. خرجت القاهرة لتلقى نظرة الوداع على سلطان مصر الأسير، وهو يمضى إلى حتفه، وقد أحاطت به سيوف العثمانية من كل جانب، فبدأ مثل أسد جريح وقع فى شبك صياد غادر، ولم يكن أحد يصدق أن البطل الهصور فى طريقه إلى ساحة الإعدام عند باب زويلة، فهو يختال فوق صهوة جواده مرفوع الهامة.. ثابت الجنان.. باسم الثغر.. يلوح إلى الناس بيديه فيبث فى قلوبهم الثقة والطمأنينة والأمل.. حتى أن بعضهم صدق الإشاعات التى ذاعت فى الصباح بأن أعداءه سيعاملونه كما يعامل الأبطال حين ينكسرون.

فمن قائل إن السلطان سليم الأول، سيسمح له بالسفر إلى مكة ليقضى بقية عمره فى جوار البيت العتيق، ومن قائل أنه سيبعث به إلى إستانبول ليعيش معزلاً بين يدي أعدائه، متأسياً بأخلاق الفرسان حين يكرمون أعداءهم فيزدادون عظمة فى نظر الناس والتاريخ.. ولكن القلة من المصريين كانوا يستبعدون هذه الأوهام الجميلة بعد أن شاهدوا فظائع الخنكار سليم وغرامه بسفك الدماء.. وخبروا خلفه الذى لا يعرف للشهامة طعماً. ولا يمت بشبهة الصلة إلى تقاليد الفروسية والكرم.. وعرفوا أن ساعة القضاء قد حمت.. ولا راد لها.

كان سلطان مصر:

الأسير. وبطل كفاحها الشعبى، وقائد مقاومتها الأسطورية- طومان باى- أول من يعرف هذه الحقيقة، لذا كان حريصاً على أن يكون آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة، بث روح الصلابة والتحدى فى نفوس المصريين، حتى لا يستسلموا للهزيمة ولكى تبقى جذوة الجهاد متقدة تحت الرماد.. كانت نظراته الحادة تنم عن

ثقة غير محدودة بأن مصر المحروسة لن تذلل .. ولن ترقع تحت أقدام الغزاة مهما طال الأمد واشتد القهر.. هكذا تعلم من درس التاريخ.. وهكذا أكدت له وقائع الأيام المجيدة القريبة. لما تخلى عنه الأمراء والقادة وحملة الألقاب الفخيمة.

ولم يصمد معه سوى أبناء الحوارى والأزقة فى العطوف والحسينية وبولاق والسيدة والناصرية والصلبية.

إنها مصر المحروسة بعناية الله.. هكذا تقول كتب الدين والتاريخ، فما من جبار أرادها بسوء إلا قصمه الله.. وها هو ذا السلطان سليم بن عثمان. يكسر جيشها. ويطأ أرضها، ويمحو استقلالها. ويردم شوارع القاهرة بجثث أبنائها.. ولسوف تمضى ثلاثة قرون ومصر تنزف من سيوف الإنكشارية والاصباحية والسباهية من شراذم الجند العثمانية، ولسوف يختم عليها الظلام والظلم والجهل والفقير. ثم تمضى فى العثمانيين سنة التاريخ، كما مضت فى أمم من قبلهم.. ويبقى شعب مصر.. صانع الحضارة.. وزارع المدنية ومعلم الإنسانية. وتبقى مصر الصابرة الصامدة واحة للرخاء والحب والأمن والسلام.. وينهض الفلاح المصرى من رقاده الطويل، ويرتدى آلة الحرب التى حرم منها منذ سقوط دولة الفراعنة.. ثم يمرق كالسهم فيعبر المتوسط - تحت راية محمد على - ليدق أبواب عاصمة ابن عثمان. ويهز عرش أحفاده ويحطم كبرياءهم. ويكاد يضمهم إلى إمبراطوريته العربية الناهضة، لولا تدخل الدول الأوروبية التى حرصت على أن يظل الرجل المريض.. مريضاً ولا يلفظ أنفاسه على يد الفلاح المصرى سليل أحمس وتوتمس ورمسيس.

اقرأوا الفاتحة:

وعند باب زويلة توقف الموكب المهيب. وتطلع السلطان الأسير إلى قبو البوابة، فرأى حبلاً يتدلى، فأدرك أن نهايته قد حانت، فترجل.. وتقدم نحو الباب بخطى ثابتة.. وتلفت نحو الجماهير المتجمعة عند أفواه الحواري، وخلف المشربيات ذات العيون الضيقة.. وطلب من الجميع أن يقرأوا له الفاتحة ثلاث مرات.

واكتست وجوه المصريين بتهويم الوجوم.

واحتبست في حلوقهم العبرات.

ورفعوا أكفهم إلى السماء يقرءون..

وخيم الصمت إلا من همهمات الفاتحة تتردد في الصدور الجريحة، فيسمع لها هدير يزلزل الجبال.

والتفت السلطان البطل إلى الجلاد وقال له: اعمل شغلك.. وبدأ الجلاد يعمل شغله. وعلى كثرة ما شنق من أفراد منذ جاء ابن عثمان إلا أنها المرة الأولى التي يشنق فيها أحد سلاطين مصر.. كان الجلاد يعرف هذه الحقيقة المفجعة فلم يعمل شغله كما ينبغي أن يكون الشغل مع العظماء والسلاطين. ومن المؤكد أن أعصابه خانته وهو يلف الحبل حول عنق أمير مصر وبطلها القومي.. وكانت مفاجأة.

مكاتبنا عند ساحة الإعدام - المؤرخ المصري محمد بن أحمد بن إياس - يكتب لنا تقريراً وافياً عن هذه المفاجأة فيقول: فلما وضعوا الحبل فانقطع به فسقط على عتبة باب زويلة. ثم انقطع به الحبل مرتين وهو يقع إلى الأرض. ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس. وعلى جسده شاياه جوخ أحمر. وفوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار، وفي رجله لباس جوخ أزرق. فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة

عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف.

لماذا صرخ المصريون هذه الصرخة العظيمة؟ ولماذا حزنوا على طومان باى كثيرا؟ وهم الذين كرهوا المماليك من أعماق قلوبهم وتمنوا زوال ملكهم، وطومان باى أحد أبناء تلك الطبقة الارستقراطية العسكرية التى جثمت على صدر مصر قرنين ونصف قرن.

ابن إياس يقدم لنا مبررات هذا الحزن.. وهى مبررات تكشف عن نظرة مصرية موضوعية، تميز بين الصالح والطالح. ولا تخلط الحابل بالنابل.. ولا تأخذ الأمير المجاهد بجريرة طبقته أو طائفته أو بنى جنسه.. لقد ذاق المصريون العذاب والمهانة من الأمراء المماليك فى أخريات عصرهم، حين تحولوا إلى قطاع طرق.. شغلتهم النهب والسلب والفرار من المعارك قبل أن يحمى وطيسها، أما طومان باى فلم يكن من هذا النسيج.. كان فريدا فى صلاحه وعدله.. فريدا فى شجاعته، لم يهرب كما هرب أمراؤه حين لاحت فيالق الغزو العثمانى.. وإنما بقى فى قلب القاهرة، يحض أهلها على مواصلة القتال والتصدى للغزاة.. وينضم شباب الحوارى فى كتائب وفرق لحرب العصابات.. ويخوض بهم معركة حياة أو موت.. يقاتلون الغزاة من بيت لبيت.. ومن شبر لشبر.. ويقتحم بهم معسكر السفاح العثمانى سليم شاه.. بلا خوف ولا رهبة.

مثل هذا الأمير الشجاع.. كيف لا ييكيه المصريون..؟ وكيف لا يحزنون عليه حزناً كثيرا؟ وهو الذى دافع عن شرف مصر واستقلالها وكرامتها إلى آخر نفس فى صدره.

كان شجاعاً بطلاً:

يقول ابن إياس: فلما شنق، وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة. وكثر عليه الحزن والأسف، فإنه كان شاباً حسن الشكل، سنة نحو أربع وأربعين سنة. وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه وقتك في عسكر ابن عثمان، وقتل منهم مالا يحصى وكسرهم ثلاث مرات في نفر قليل مع عسكره. ووقع منه في الحرب أمور لاتقع من الأبطال. وكان لما سافر عمه السلطان الغورى، جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب، فساس الناس في غيبة السلطان أحس سياسة، وكانت عنه راضية في مدة غيبة السلطان. وكانت القاهرة في تلك الأيام في غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك. فلما مات السلطان الغورى (عمه) وتسلطن عوضه. أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل في أيام الغورى. ولم يشوش على أحد من الناس في مدة سلطنته، ولا يقبل في أحد من الناس مرافعة، ولا صادر أحداً من المباشرين في مدة سلطنته ولما وصل ابن عثمان إلى الشام. وقصد أن يخرج إليه. فشكى أن الخزائن خالية من الأموال. فقال له الأمراء وجماعة من المباشرين: افعل كما فعل السلطان الغورى. وخذ أجرة أملاك القاهرة سبعة أشهر، وخذ على الرزق والإقطاعات خراج سنة، فلم يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك. وقال ما أجعل هذا أن يكون في صحيفتى.

ويمضى ابن إياس في روايته عن طومان باى فيقول: وكان ملكاً حليماً قليل الأذى كثير الخير. وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد. وقاسى شدائد ومحنا وحروباً في البلدان. وآخر الأمر شنق على باب زويلة، وأقام ثلاثة أيام وهو معلق على الباب حتى جافت رائحته، وفي اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ووضعوه فيه. وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه هناك، ودفنوه في الحوش الذى خلف المدرسة

ومضت أخباره كأنه لم يكن، وقد قلت من أبيات:

ولهفى على سلطان مصر كيف

قد ولى وزال كأنه لن يذكر

شنقوه ظلما فوق باب زويلة

ولقد أذاقوه الوبال الأكبر

يارب فاعف عن عظام

واجعل بجنات النعيم له قرا

وإذا كان ابن إياس قد وجد فى نفسه الشجاعة، ليرثى سلطان مصر الشهيد بهذه الأبيات الركيكة- لفظاً ومعنى - غير عابئ بسطوة الحكومة الجديدة، التى حرصت على إزالة آثار العهد البائد، إلا أنه لم يكن موفقاً أبداً حين ظن أن أخبار طومان باى مضت (كأنه لم يكن) !!

فمصر الأصيلة ذات التاريخ العريق، لا يمكن أن تنسى أبطالها الذين وقفوا معها فى ساعة الشدة. وقادوا نضالها ضد الغزاة المعتدين، وبذلوا أرواحهم فى سبيل عزتها وكرامتها واستقلالها. ربما قصد ابن إياس أن أخبار طومان باى مضت كأن لم يكن فى سجلات العهد العثماني ودفاتر الحكومة العميلة، ولكن متى كانت أقدار العظماء توزن بما تدبجه أقلام الكتاب الحكوميين (!!)

لا يحاربون العدو:

تولى طومان باى حكم مصر.. مكرها.. مرغما.. فقد كان يعلم حقيقة الأوضاع المالية والعسكرية بحكم قرابته للسلطان الغورى، وبحكم انتمائه إلى طبقة المماليك الحاكمة.. فقد كانت خزانة البلاد خاوية بعد أن فرق الغورى محتوياتها على الأمراء

ليغريهم بالخروج معه إلى الشام، لملاقاة جيش ابن عثمان قبل أن يتقدم نحو مصر.. كان طومان باى فى موقف عصيب حقاً.. فمن أين له بالأموال التى تسد نهم المماليك، وهم لا يتحركون إلا إذا قبضوا.. ولا يفهمون أن الدفاع عن شرف الوطن ليس موضوع مساومة، والمساومة الوحيدة المقبولة هى التسابق على البذل والفداء وحب الاستشهاد.

ولكن أى وطن؟ وأى استشهاد؟ وهم الذين لا تربطهم بالوطن إلا وشيعة النهب والسلب.. وأى استشهاد وهم الذين جفت من نفوسهم كل ينابيع النبل والسمو والشرف. وحلت مكانها نوازع الخسة والتكالب على الحياة الذليلة.. وكان طومان باى يعرف كل هذه الحقائق المزرية عن إخوانه، فقد عادوا إليه من معركة مرج دابق، بعد أن خانوا أستاذهم وقائدهم الغورى.. وتخلوا عنه وهو فى قلب المعركة فأصيب من فوق جواده، فداسته سنابك الخيل حتى لم يبق من جثمانه أثر. ولم ينعم بمتعة الدفن فى مقبرته البديعة التى بناها خلف مدرسته بالغورية ولذلك أراد طومان باى أن يتخلى عن السلطنة التى كان يتولاها أثناء غيبة الغورى. أما وقد مات السلطان فقد واثته الفرصة للخروج من المأزق. فجمع الأمراء وطلب منهم أن يختاروا للسلطنة من يشاءون. ولكنهم أصرروا على سلطنته وقالوا له: ما اعتدنا سلطانا إلا أنت. وهو يمتنع. فما كان منهم إلا أن أخذوه وذهبوا معه إلى العارف بالله الشيخ سعود الجارحى، حيث يقيم فى زاويته بمصر القديمة ليقنعه بالاستمرار فى السلطنة، وطومان باى يتعلل بأنواع كثيرة، منها أن خزانة البلاد ليس فيها درهم ولا دينار، فإذا تسلطن لم يجد ما ينفقه على العسكر، ومنها أن ابن عثمان يواصل زحفه على مصر، والأمراء يأبون الخروج لقتاله. ومنها أن الأمراء سيغدرون به كعادتهم ويركبون عليه ويخاتلونه ويرسلونه إلى السجن بثمر الإسكندرية.. إلخ.

إلى هذا المستوى انعدمت الثقة بين السلطان وأركان حربه، ولكن المبررات التى

ساقها لم تفلح فى إقناعهم بتخليه عن المسئولية. فقد كان هو رجل الساعة عن
جدارة.. فأحضر الشيخ سعود الجارحى مصحفاً شريفاً وحلف عليه الأمراء أنهم لا
يخامرون عليه ولا يغدرونه ولا يثيرون فتناً وأنهم ينتهون عن ظلم المسلمين قاطبة..
وانفض المجلس على ذلك.. يرحمك الله يامولانا الشيخ سعود الجارحى.. فقد كنت
رجلاً من أهل الله.. لا تعرف خبايا القوم وما انطوت عليه نفوسهم من خسة ولؤم..
هل كنت تتوقع أن يصدقوا فى حلفهم على المصحف الشريف وهم الذين لا
يفهمون حرفاً من كلام الكتاب الكريم؟ فلم تمر أيام قليلة على هذه الأيمان
المغلظة حتى لحسوها. وتغلبت عليهم طبيعتهم.. لقد وردت الأخبار بأن جيش ابن
عثمان قد احتل العريش، فنادى السلطان بالنفير فجاء جماعة منهم يقولون: نحن ما
لنا عادة نخرج مع العسكر ونحن ما نقاتل إلا الفرنج.. وما نقاتل مسلمين.. وأظهروا
التعصب لابن عثمان

معسكر الريدانية:

وأقام طومان باى معسكراً لتجميع القوات المصرية عند الريدانية (ومحلها حى
العباسية حالياً)، وأدرك السلطان أن أعوانه لا بد خاذلوه.. فأراد أن يشترك أبناء القاهرة
فى الدفاع عن وطنهم.. ويجعلها تعبئة عامة لكل طوائف الشعب، فانطلق المنادون
يطلبون من الزعر والصبيان والشطار والفتوات، وكل من كان مختفياً على قتل قتيل
أو عليه دم، يظهر وعليه أمان الله.

ولا تثريب على السلطان إن أسقط العقوبات. فالموقف كان فى غاية الخطورة..
والبلاد تحتاج إلى جهود كل أبنائها وتناسى الأحقاد والضغائن. ومع ذلك بقى تنابلة
السلطان على حالهم من الصفاقة والتلامة وبرود الأعصاب.. فاستدعاهم السلطان
وقال لهم:

اخرجوا.. قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم.. وأنا واحد منكم .. إن خرجتوا خرجت معكم.. وإن تقعدوا قعدت معكم وما عندي لكم نفقة.

ولكن طومان باى كان يخاطب جثثا انعدمت منها كل معانى النخوة. فقالوا له: ما نخرج حتى تأخذ مائة دينار لكل مملوك. فقال لهم: ما أقدر على مائة دينار، والخزانة فارغة.. كل ما أستطيعه ثلاثين ديناراً لكل مملوك نفقة. ومرتب ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً. إلى هذا الحد بلغت المساومة على شرف الأمة. ثم قال لهم: وإن لم ترضوا بذلك فولوا من تختارونه فى السلطة، وأنا أتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد.. ولكنهم لم يأبهوا له وقالوا: إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من السلاطين، وإن رحمت لعنة الله عليك.. غيرك يبجى سلطاناً.. فلما سمع ذلك بأذنه قال لهم: انتولوا أخذتوا من السلطان الغورى مائة وثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً. وكسرتوا السلطان وأخيتوا به حتى قتل منكم قهراً. وهذا ابن أستاذكم الغورى أسأله إن كان أبوه ترك فى البخزائن شيئاً من المال فيخبركم بذلك. وإن كان تسلطوه فأنا أول من يبوس له الأرض.

فاقترحوا عليه أن يفعل كما فعل قايتباى والغورى، فيصادر أموال الأوقاف، ويستولى على خراج الأرض والعقارات مقدماً.. ولكنه أبى وامتنع وقال ما أحدث فى أيامى هذه المظلمة أبداً..!

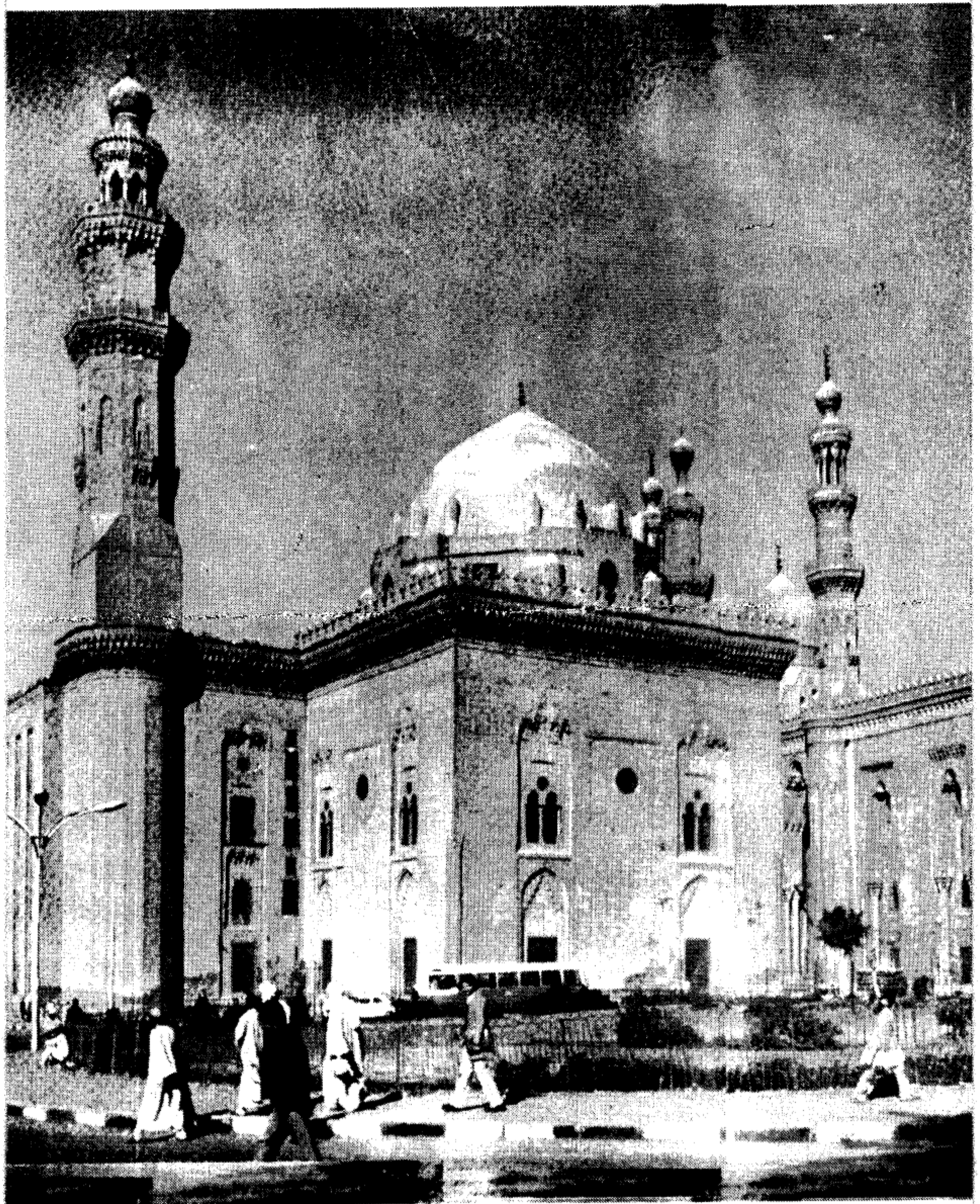
كان طومان باى حريصاً على تجنب الظلم أو المساس بحقوق الناس وتعاليم الشريعة. حتى فى هذه الظروف الاستثنائية ولو فعل لما لامة أحد.. ولكنه كان طرازاً من الحكام لم نسمع عنه منذ عصر الراشدين ومن نهج نهجهم من الملوك العادلين، وامتنع أن يسلك مسلك سلفه الغورى، حين استولى على أموال الأوقاف

والإقطاعات. ولم ينس وهو فى عز الأزمة أن يختلس مائة ألف دينار، ويدسها فى جيب ابنه ليستعين بها على غدر الزمن.. هكذا أشيع - فل يكن من اليسير فى هذه العهود أن يعرف أحد حقيقة ما يجرى على أموال الدولة من تصرفات.

الفصل الحادي عشر

١١

الطحاوي
علمي
عاش
حظ
عاشي
باب زويلة



على باب زويلة:

مع نهاية شهر ذى الحجة من عام ٩٢٣ هجرية. كانت سحب الخطر تتجمع على الديار المصرية، مع اقتراب الجيش العثماني من الشرقية، فنزل السلطان طومان بأى من القلعة وتوجه إلى معسكر التجمع فى الريدانية، ولبس رداء الحرب، وبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية يتوجهون إلى المعسكر فى باكر الصباح، حتى يراهم السلطان. ثم يتسللون إلى بيوتهم ويبيتون فيها.

كان نجوم العسكرية المملوكية يتصرفون كالتلاميذ الأشقياء، يذهبون لحضور طابور الصباح، ويوقعون على كشف الحضور والانصراف. ثم يقفزون من فوق السور ليبيتوا مع حريمهم، فى الوقت الذى دخل فيه الجيش العثماني مدينة بلبس، وكان طومان باى يريد الخروج إلى بلبس قبل أن يستريح الغزاة فى ريف الدلتا.. فلم تمكنه الأمراء.. ولو لاقاهم هناك لكان فيه الصواب، فإن خيولهم كانت قد بطلت من الجوع، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم معه حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الخانكة ويجدوا العليق والمأكّل والمشرب والراحة.. هكذا يقول ابن إياس.

لم يقف طومان باى موقف المتفرج، كما أراد له الأمراء أن يكون فمن معسكره بالريدانية قام بحفر خندق يبدأ من الجبل الأحمر عند (مدينة نصر)، ويخترق صحراء (مصر الجديدة) إلى آخر غيطان المطرية. ونصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة فيها بالمدافع. وصف حولها العربات الخشب فكانت عدتها مائة عربة. وكل عربة يسحبها زوج أبقار، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق والرصاص والحديد ورماح خشب وغير ذلك. ومعهم جم غفير من النجارين والحدادين، ولم

تقتصر همة السلطان عن إعداد العدة حتى كان الناس يبكون، ويدعون له بالنصر إذا رأوه يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين، ويشيل التراب مع الفعلة في حفر الخندق وعمل الساتر.

وفى يوم السبت رابع عشرينه استعرض السلطان بالوطاق الزعر (الفتوات) فاجتمع منهم الجم الغفير. فأوعدهم السلطان أنهم إذا قاتلوا عسكر ابن عثمان وانتصروا عليهم ينفق على كل واحد منهم عشرة أشرفية (دنانير)، وينعم على كل واحد منهم بسيف وترس. وكلف الأمير (أنصبای) بأن يتدخل لإصلاح ذات البين بين زعر الصليبية وزعر المدينة.

ولم يفلت طومان باى من التآمر على حياته. إذ هجم عليه شخص من التركمان ينوى اغتياله فقطعوه بالسيوف ثم اكتشفوا أنها امرأة من التراكمة ولما نزعوا ثيابها وجدوها تلبس زردية الحرب وتخفى خنجرا كبيرا.

طلانع الجيش العثماني

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرين ذى الحجة، وصلت طلائع عسكر ابن عثمان عند بركة الحاج بضواحي القاهرة فاضطربت أحوال العساكر المصرية وغلق باب الفتوح وباب النصر وباب الشعرية وباب البحر وغلقت الأسواق وتعطلت الطواحين. وزعق النفير بالوطاق. وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم وصف العسكر من الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية. وكان له همة فى هذه الحركة ولكن مضى اليوم دون قتال بين الفريقين.

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرين ذى الحجة. فيه وقعت كائنة عظيمة تذهل عن سماعها عقول أولى الألباب. فقد زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى

السلطان للعسكر بالخروج إلى القتال. فركبت الأمراء ودقوا طبول الحرب وركب العسكر قاطبة حتى سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وعم السواد الأعظم فتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية. فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الواقعة التي كانت في مرج دابق فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم. وقتل سنان باشا أكبر وزراء ابن عثمان. وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان بك إلى تربة الأمير يشبك. ثم إن العثمانية دبت فيهم الحياة وجاءوا أفواجا ثم انقسموا فرقتين فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر. وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية فطرشوهم بالبندق الرصاصي. فقتلوا من عسكر مصر ما لا يحصى عددهم، وكان ذلك بإرشاد بعض الأمراء الخونة الذين انضموا إلى ابن عثمان، فلم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة. ولكن ثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من العبيد الرماة. والمماليك السلحدراية. فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم فلما تكاثر عليه العثمانية ورأى العسكر قد قل من حوله خاف أن يقبضوا عليه فطوى السنجق السلطاني. واختفى جهة طرة.

ودخل العثمانيون القاهرة. وأعملوا في أهلها السيف، وصاروا يخطفون الصبيان المرد والعبيد السود. واستمر النهب إلى ما بعد المغرب. ثم توجهوا إلى شئون القمح التي بالفسساط وبولاق، فنهبوا ما فيها من الغلال. وفي اليوم التالي الجمعة آخر يوم من عام ٩٢٣ استؤنفت أعمال السلب والنهب، وصار العثمانية يدخلون البيوت بحجة البحث عن المماليك، فيعتدون على أصحابها. وفي ذلك اليوم خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر القاهرة، وقد ترجم له بعض الخطباء فقال وانصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين. وكاسر الجيشين. وسلطان العراقين.

وخادم الحرمين الشريفين . الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصر عزيزاً ، وافتح له
فتحا مبينا . يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين .

ويأبى ابن إياس إلا أن يختم حوادث العام المشعوم بتلك الأبيات التي تكشف عن
اعتقاد غريب بأن ما جرى كان عقاباً من القدر (!!).

ختم العام بحرب وكدر

وحصل للناس غايات الضرر

وأتاهم حادث من ربهم

كلن هذا بقضاء وقدر .

طومان باى يبدأ الحرب:

لن نرصد هنا الفظائع والمذابح التي ارتكبتها جند العثماني بعد دخولهم القاهرة .
فقد ذكرها ابن إياس بالتفصيل فى الجزء الخامس من مؤلفه الكبير (بدائع الزهور فى
وقائع الدهور) . فليرجع إليه من يريد . أما مهمتنا هنا فهى البحث عن طومان باى بعد
أخفافه ونجاحه فى الإفلات من جند ابن عثمان . ومن الصعب أن نعرف الأماكن
التي لجأ إليها . أو الأشخاص الذين عاش بينهم فى فترة الاختباء . لأن مثل هذه
المعلومات يندر العثور عليها بسهولة وتبقى سراً فى صدور أبطالها ، ولن يطول بحثنا
عن سلطان مصر وستفاجأ به يدق أسوار معسكر السلطان سليم ويقتحمه .

المهم .. أن خاقان البرين وسلطان البحرين وملك العراقين سليم بن عثمان ، نقل
وطاقه من الريدانية إلى بولاق . فلما كانت ليلة الأربعاء خامس المحرم بعد صلاة
العشاء لم يشعر ابن عثمان إلا وقد هجم عليه الأشرف طومان باى بالوطاق وإحتاط
به .. فاضطربت أحوال ابن عثمان إلى الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة ، وكان هجوم

طومان باى بواسطة مجموعة من الجمال المحمولة بالتبن المشتعل ، فأشاعت الرعب والفرع فى عسكر سليم . ثم هجم طومان باى ومعه الجم الغفير من الزعر وعياق بوالق من النواتية وغيرها . وصاروا يعملون السيف فى جند العثمانية فقتلوا منهم مالا يحصى عددهم . وصاروا يرحمون بالمقاليف وفيها الحجارة . واستمروا على ذلك إلى أن طلع النهار فلاقاهم الأمير علان - مساعد السلطان - من الناصرية عند الميدان الكبير ، فكان بين عسكر سليم وبين عسكر مصر وقعة تشيب منها النواصي ، فملكوا من رأس الجزيرة الوسطى (الزمالك) إلى قنطرة باب البحر (شارع كلوت بك) وإلى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائراً بين الفريقين من طلوع الفجر إلى بعد المغرب ، وصار المماليك الجراكسة يكبسون البيوت والحارات على العثمانية ، مثلما كانت العثمانية تفعل بالأمس .. وصار الطالب مطلوباً . فلما كان يوم الخميس سادس المحرم ، اشتد القتال بين العثمانية والمصريين . ونادى السلطان فى الناصرية وقناطر السباع (السيدة زينب) للزعر والعياق ، بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ حربته ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان . ولكن العثمانية طردوا المصريين من بولاق وجزيرة الفيل وملكوها منهم . ثم طردوهم من الجزيرة الوسطى إلى الناصرية وملكوها منهم . ثم إن العثمانية هجموا وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام ، وفيهم صغار وشيوخ .. وما فعل العثمانيون ذلك إلا انتقاماً من أهل الناصرية وعقاباً لهم على ما فعله عياقهم وشبابهم من أعمال بطولية أفرغت خاقان البرين وخادم الحرمين الشريفين .

ولكن أين ذهب طومان باى ؟

فى جامع شيخو:

يقول ابن إياس : ثم إن السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو الذى فى الصليبية

(شارع محمد علي)، وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبية إلى قناطر السباع في نفر قليل من العسكر. ثم رسم بحفر خندق في رأس الصليبية، وأخر عند قناطر السباع. وأخر عند رأس الرملة (السيدة عائشة) وأخر عند جامع ابن طولون. وأخر عند حدرة البقرة. ثم إن السلطان رسم بحرق خان الخليلي فمنعه بعض الأمراء من ذلك. وقسم طومان باي عسكره إلى أربع فرق: فرقة إلى قناطر السباع، وفرقة إلى الرملة، وفرقة إلى ابن طولون، وفرقة إلى باب زويلة.. فلم يقابل من المماليك السلطانية إلا القليل، وصاروا يختفون في الاسطبلات خوفا من القتال، وقد دخل الرعب قلوبهم من العثمانية ما بقي يخرج منها.

ثم إن السلطان طومان باي نادى في القاهرة، أن كل من أمسك أحدا من عسكر ابن عثمان وطلب منه الأمان.. يقتله، ومن العجائب أن السلطان طومان باي لما ظهر خطب باسمه على منابر القاهرة في يوم الجمعة.. وكان في الجمعة الماضية خطب باسم سليم شاه بن عثمان.. واستمر السلطان يكر على عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم مالا يحصى عددهم، فرأى عين الغلب، وقد تكاسل العسكر عن القتال، واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء كل واحد في ناحية، واستمر السلطان يقاتل وحده في نفر قليل من الرماة وبعض المماليك السلطانية، فلما ظهر له الغالب هرب وتوجه ناحية بركة الحبش (عين الصيرة) وكان قليل الحظ غير مسعود في أفعاله. وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان وقد غلت أيديهم.

ولما هرب السلطان وقعت في القاهرة المصيبة العظمى. التي لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان. فقد طفشت العثمانية في الصليبية، وأحرقوا جامع شيخو انتقاماً من طومان باي وأحرقوا البيوت التي حوله. وصاروا يلعبون بالسيف في رقاب العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك. فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة والصليبية وقناطر السباع إلى الناصرية ومصر العتيقة. فكان مقدار من قتل

فى هذه الواقعة فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأيام الأربعة، ولولا لطف الله لكان لعب السيف فى أهل مصر قاطبة.

وواصلت القوات العثمانية عمليات التصفية الوحشية للقضاء على جيوب المقاومة الشعبية. فاقتحموا الحارات والبيوت والجامع الأزهر وجامع الحاكم وابن طولون وهاجموا المدارس والأضرحة والمقابر. وقبضوا على الكثير من المصريين الذين اشتركوا فى قتال الشوارع وقطعوا رؤوسهم، وكانوا يعزلون رؤوس المصريين عن رؤوس المماليك، ثم يلقون رؤوس المماليك فى النيل، أما رؤوس المصريين فيعلقونها على حبال الصواري، إمعانا فى إذلال الشعب وإرهابه. وحتى لا تسول لهم نفوسهم مقاومة الغزاة مرة أخرى.

وهكذا أخضع سليم شاه القاهرة بوحشية ليس لها نظير، وبعد قتال مرير استمر ثمانية أيام متواصلة، خضبت فيها الدماء دروب القاهرة وحواريها وأزقتها. قاتل فيها الشعب دفاعا عن عرضه وأرضه.

النصر النهائي للعثمانيين:

أما طومان باى، فقد عبر النيل إلى الجيزة لتنظيم ما تبقى معه من قوات، والاتصال بقبائل البدو فى الصعيد عسى أن تؤازره فى هذه الحظات العصيبة، وتنسى مالها من ثأر قديم عند الحكام المماليك. وفى أثناء ذلك جرت الرسل بالتفاوض بين سليم وطومان باى. ولكن المفاوضات فشلت، وعلم سليم أن طومان باى يستعد لخوض غمار معركة جديدة، فخرج لملاقاته عند وردان (مركز إمبابة)، ودار بين الجيشين قتال مرير استبسل فيه العسكر المصرى استبسالا مكنهم من إحراز نصر مبدئى، فاضطر العثمانيون إلى التقهقر، بل إن بعضهم ألقى بنفسه فى النيل هربا من هول القتال، ولكن سرعان ما استعاد العثمانيون تفوقهم بفضل تقدمهم فى الفنون

العسكرية الحديثة فضلا عن أعدادهم الكبيرة، فلما فقد طومان باى أى أمل فى إحراز النصر، اتخذ قرارة باللجوء إلى بعض عربان البحيرة ليعيش بينهم لاجئا إلى أن يقضى الله أمرا..

وانتهت بذلك سلسلة المعارك الدامية بين المصريين والعثمانيين، وأحرز ابن عثمان النصر النهائى، ودخلت مصر ضمن مملكته التى زعم أن الله قد أوصى إليه بأن تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، على غرار مملكة الإسكندر.

الخونة يسلمون السلطان:

كان حسن مرعى زعيم قبيلة (محارب) بالبحيرة، وكان السلطان الغورى قد قبض عليه وحبسه لأسباب مالية وكتب على قيده «مخلد»، ولكن ما إن تولى طومان باى الحكم حتى أطلقه، وظن السلطان الطيب القلب أن حسن مرعى سيذكر له هذا الجميل الذى خلصه من سجن مؤبد، وسيحفظ عليه سره بعد أن اختاره ليلجأ عنده هربا من عيون السلطان سليم، وعندما عرض السلطان مشروعه على أعوانه شكوا فى نوايا حسن مرعى، ولكن طومان باى استنكر شكوكهم وقال لهم يكون معى ظاهراً وباطناً ويقوم معى بالقلب إذا احتاج الأمر لذلك وما نرى أحسن من سيرنا إليه ونكون نحن وهو على قلب رجل واحد. ثم بعد ذلك ندبر أمرنا، ومنتظر ما يكون من جانب الله تعالى، وهو يعلم أنهم باغون علينا وتحت ستار الليل توجه طومان باى مع البقية الباقية من رجاله إلى قرية (تروجه) بالبحيرة، فلاقاه حسن مرعى وابن أخيه شكر بالترحاب فى ضيعة تسمى (البوطة)، فأخرج طومان باى مصحفا وطلب منهما أن يقسما عليه ألا يخوناه أو يغدرا به، فأقسما على ذلك، وعندئذ طاب قلب طومان باى ووافق على الإقامة عندهما:

ولكن ما أن اجتمع حسن مرعى مع أعوانه حتى أدركوا خطورة إيوائهم للسلطان

المهزوم، وأدركوا أنهم بذلك يقفون إلى جانب الكفة الخاسرة، وتغلّبت بواعث الطمع والانتهازية على نوازع النخوة والشهامة، وقدروا المكاسب التي سيحصلون عليها إذا هم وقفوا في صف الحاكم الجديد، فبعثوا إلى سليم شاه يخبرونه بوقوع الفريسة في أيديهم. وفي الحال أرسل سليم فيلقا من الإنكشارية للقبض على سلطان مصر الذي باعه العربان بأبخس الأثمان.

طومان باى يدافع عن حقه:

دخل طومان باى معسكر سليم فى إمبابة، وهو فى زى عرب الهوارة الذى تخفى فيه، وعندما وقعت عليه عين سليم صاح طربا:

الحمد لله أستطيع القول بأننا ملكنا ملك مصر.

ودار بين الرجلين حوار سجلته كتب المؤرخين. وهو يصلح لأن يكون درسا فى الوطنية والشجاعة فى كل زمان ومكان. لقد صب السفاح العثماني أبشع اللعنات على السلطان الأسير. وأراد أن يحمله مسئولية الدماء التى أريقت، ولكن السلطان لم يفزغ.. ولم يتخاذل ولم يستعطف وإنما ظل رابط الجأش.. ثابت القلب.. قاطع الرد..

قال له إن ما قام به من أعمال إنما كان واجبا مقدسا أملاه عليه شرفه الوطنى والعسكرى. وأنه ملزم بالدفاع عن بلاد هو حاكمها، ويجب عليه حمايتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن حق الدفاع عن الوطن أمر مشروع لا يحتاج إلى دليل أو برهان. ثم خاطبه قائلا: أما أنت.. فلا أدري كيف تبرئ نفسك أمام الله من اعتدائك الجائر على بلادنا.. وعندما لأمه سليم على رفضه الاعتراف بالسيادة العثمانية على مصر رد عليه بهذه الكلمات:

إن الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل.. وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ أنتم لستم أفرس منا.. ولا أشجع منا.. وليس فى عسكريك من يقايسنى فى

حومة الميدان .

ويقول الرواة إن سليم شاه انبهر من شجاعة أسيره وحدثته نفسه بالإبقاء عليه والإفادة منه فى ترسيخ العهد الجديد، وحين شاعت هذه الأقاويل فى دوائر الحكومة العثمانية فزع منها الخونة من الأمراء المماليك الذى خانوا وطنهم وانحازوا إلى جيش الغزو من أول دقيقة، ولم يسكت هؤلاء الخونة وإنما حرصوا الخنكار على التخلص من طومان باى، وأفهموه أن استقرار الحكم العثماني فى مصر رهن بالقضاء على هذا الرجل، الذى أصبح رمزا للوطنية المصرية، وبطلا للكفاح الشعبى الذى لم يخمد نهائيا.

واقنع سليم برأى الخونة.. فأمر بإعدام طومان باى شنقا على باب زويلة، وفى يوم الاثنين ٢١ من ربيع الأول عام ٩٢٤ هجرية، خرج موكب السلطان الأسير من المعسكر العثماني فى إمبابة حتى وصل بولاق وهو فى حراسة ٤٠٠ جندي من الإنكشارية. ثم اتجهت مسيرته فى شوارع القاهرة حتى توقف الركب عند باب زويلة ليعلم المصريون أن بطلهم الأسطوري فى طريقه إلى جبل المشنقة، وتخمد بذلك أى بارقة أمل فى الخلاص.. وخرج الناس يلقون النظرة الأخيرة على السلطان الذى خاض بهم حرباً مقدسة فلم يساوموه على درهم ولا دينار وإنما تسابقوا إلى البذل والعطاء.. وجاء عليه الدور ليدفع أغلى ما يملكه الإنسان فداء لوطنه.

أروع آثار
العصر المملوكي
مدرسة السلطان
حسن . . جامع وجامعة



ليس من الأمانة التاريخية أن ندمغ عصر المماليك بأنه كان عصر الدماء والسلب والنهب، إذ يقتضينا الإنصاف أن نعترف بفضل هؤلاء الحكام على حركة الثقافة والعلم التي ازدهرت في عهدهم بدرجة لم يبلغها عصر آخر من عصور مصر الإسلامية، وتلك إحدى المفارقات الغريبة التي كانت طابع هذا العصر. وليس صدفة أن تتجنب هذه الحركة فحول المؤرخين من أمثال المقرئى وابن تغرى بردى والقلقشندي والنويرى والسخاوى وابن إياس. فضلا عن عشرات العلماء والفقهاء والقضاة الذين ازدان بهم تاريخ الإسلام. ولمن يريد أن يتأكد من هذه الحقيقة فإن عليه أن يقوم بجولة سريعة فى ربوع القاهرة التى يطلق عليها خطأ- المعزية- ليرى آثار هؤلاء القوم الذين عمروا المساجد الرائعة وأقاموا المدارس والأسبلة والخانقاوات والأضرحة وغيرها من العمائر الحضارية التى لا تزال قائمة حتى عصرنا لتشهد على عظمة العصر المملوكى. وشغف هؤلاء الحكام بإقامة الآثار الجليلة التى خلدت أسماءهم فى سجلات الحضارة العمرانية.

وقد انتقيت لك مدرسة السلطان حسن كنموذة لهذه النهضة العظيمة لعصر المماليك.

ولم يتفق المؤرخون والرحالة وعلماء الآثار، العرب والأجانب، القدامى والمحدثون، على أثر توفر فيه مناقب الفخامة والجمال والجلال، مثلما اتفقوا على مدرسة السلطان حسن، الكائنة أمام قلعه صلاح الدين بالقاهرة، حتى أن بعضهم جعلها فى مستوى الأهرامات من حيث الروعة والجبروت، وقالوا: إذا كان لمصر الفرعونية أن تفخر بأهراماتها من حيث الروعة والجبروت، فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجباً بمدرسة السلطان حسن، ووصفها المؤرخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى بأنها إحدى

عجائب الدنيا وأحسن بناء بنى فى الإسلام، وقال المقرئزى: لا يوجد فى بلاد الإسلام معبد يحاكى هذا الجامع وقبته التى لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها. وقال عنها عزالدين خليل بن شاهين الظاهرى: ليس لها نظير فى الدنيا، ولما أمر الملك الناصر حسن بعمارتها طلب مهندسين من أقطار الأرض، وأمرهم بعمارة المدرسة، ولم يعمر أعلى منها، وهى عجيبة من عجائب الدنيا، وعندما دخل السلطان العثمانى سليم الأول القاهرة وقف أمام المدرسة مبهورا وقال: «هذا حصار عظيم» وقال عنها الرحالة المغربى الورثيلانى الذى زار مصر فى القرن الثامن عشر: أنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء ونباهته، وارتفاعه وإحكامه، وأتساع حناياه، وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة، تصفق الرياح بأبوابه كما تفعل فى شواهدق الجبال، وفى أحد أبوابه سارية رخامية لطبقة يقال إنها من إيوان كسرى وفيها نقوش عجيبة.

وقد أحصى العالم الأثرى (هوتس باشا) أقوال الرجال والمؤرخين الأجانب فى هذا المسجد، وذكرها عالم الآثار حسن عبد الوهاب فى كتابه (تاريخ المساجد الأثرية فى القاهرة) نقتطف منها ما يلى:

قال بترودى لا فالليه سنة ١٦١٦ م: وتجاه القلعة جامع لم أر أجمل منه منظرا، ولا أبدع منه شكلا، وأحسن ما راقنى منه قبته وشكلها الغريب التى لم أشاهد مثلها، فإنك بينما تراها ضيقة من الأسفل تتسع فى عينيك كلما تعلقو، ثم تأخذ فى الضيق على هيئة بيضة الدجاج.

قال مستر تيفنو الذى زار مصر سنة ١٦٥٧ م: هذا الجامع متقن البناء، عظيم الارتفاع، وكله مبنى بحجر الآله.

وجاء فى كتاب (وصف مصر) للحملة الفرنسية: إنه جامع جميل، بل من

أجمل مباني القاهرة، بل الدولة المصرية بأسرها، وجدرانه ملونة بألوان شتى. وتتدلى المصابيح الجميلة من عقود إيوانه وفي قبة التربة.

وقال مسيو (جومار) عميد علماء الحملة الفرنسية: إنه من أجمل مباني القاهرة والإسلام، ويستحق أن يكون في المرتبة الأولى من مراتب العمارة العربية، بفضل قبه العاليه، وارتفاع مئذنيته، وعظم اتساعه، وفخامة وكثرة زخارفه التي تكسو الأرضية والحيطان في أوضاع بسيطة بهذه العمارة، كما أن حنوت الخشب والبرونز التي تكسو الأبواب الخشبية والنحاسية محفورة حفرًا فنيًا.

وكتب عنه المصور (لينوار): إن جامع السلطان حسن المملوكي يشرف على القاهرة كلها، وأسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية، وساحته عظيمة ولذا يعد أجمل جامع في الشرق كله بلا نزاع.

وقال (إيبرس): إن كل ما نراه في الجامع مركب في مكانه تركيباً هادئاً منسجماً، فإذا أمعنت النظر في زخارف إيوان القبلة، وقاعة القبر، جزءاً جزءاً، أحسست إحساس الرضا، فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة.

وقال (آرثر رونييه): إن العبقرية هي التي أتاحت لصاحبها السيطرة على الأشكال التقليدية أو الهندسية، فبث فيها روحاً من عنده، فلكل زخرفة في جامع السلطان حسن طابع تمتاز به عن سواها من زخارف الأبنية الأخرى.

أما مسيو (جاستون فيت) مدير دار الآثار العربية فقد ذكر في مقدمة بحثه عن مسجد السلطان حسن ما يلي:

«قد يكون في وصف هذا الجامع وصفا مسهباً ما يدعو إلى السآمة والملل، بالرغم من أن الجزئيات تشترك في إبراز الكليات، ولكن هذا الأثر بحاجة إلى قلم بليغ وأسلوب شاعري، حتى يمكن إبراز دقائقه وجزئياته، حتى لا يكون ما يراه القارئ

قاصراً على هذه الجزئيات فحسب. وإن كانت بعض هذه الجزئيات غاية في الطرافة والابتكار، وكأنها بيوت شعر من قصيدة عصماء، والفنان في هذا الجامع لم يوجه همه إلى الزخرفة كعامل جوهري في العمارة، بل افترض فيها، وسيطر عليها وأخضعها للكل، فأدت أغراضها، وقد يكون هذا الجامع هو الوحيد بين جوامع القاهرة الذى يجمع بين قوة البناء وعظمته ورقة الزخرفة وجمالها، وأثره قوى فى نفوسنا إذ له خصائص لا يشترك معه فيها غيره، إن جامع السلطان حسن هو العمل العظيم فى الإسلام الذى روعى فى تشييره متانة البناء، فهو كالمعابد القديمة يتحدى الزمن، بل إن الزمن هو الذى يقاوم قوة بنائه.. ولا ريب أن فى هذا البناء العالمى الشهرة والعظيم القيمة رمز لمجد الإسلام وقوته وعظمته.

ولا أحسب هذا الإجماع العالمى على عظمة مدرسة السلطان حسن إلا قائماً على أسس موضوعية، جعلت هؤلاء المؤرخين والخبراء يخلعون على هذا الأثر النفيس صفات جليله يندر إطلاقها على آلاف المساجد والأضرحة والأسبلة والخانقاوات التى تنتشر فى العواصم الإسلامية شرقاً وغرباً. وقبل أن نفوس فى مكونات مدرسة السلطان حسن يجدر بنا أن نتحدث عن السلطان نفسه صانع هذا الأثر المعمارى الفريد.

حكاية السلطان

ولعل أول ما يصادفنا، ونحن نتحدث عن الأثر وصاحبه، ذلك التناقض بينهما من حيث الشهرة والذيوغ، فبقدر ما اكتسبت مدرسة السلطان حسن من شهرة عالمية، بقدر مالقى صاحبها من إهمال وجحود، وقد تغلب عليك الدهشة إذا عرفت أن السلطان حسن لم يدفن فى الضريح الفخم الذى بناه فى حصن المسجد ليكون مثواه الأخير، وقد يعتريك الألم إذا عرفت أنه لم يدفن فى أرض على الإطلاق، ولم تظهر

له جثة يعد أن لقي مصرعه فى المعركة الأخيرة التى دارت بينه وبين مماليكه، وقيل إنهم خنقوه وألقوا بجثته فى النيل فذهبت طعاما للأسماك، وسوف تصادفنا نفس التصاريح القدرية الغربية التى حالت بين السلطان قنصوه الغورى وبين الدفن فى مقبرته الشهيرة، وضاعت معالم جثته تحت سنايك الخيل وهو يحارب العثمانيين فى معركة مرج دابق فى شمالى حلب عام ١٥١٧م.

وإذا كان التاريخ قد منح الشهرة لمدرسة السلطان حسن، وحجبها عن السلطان نفسه، فليس على التاريخ والمؤرخين من ملام، ذلك أن السلطان حسن لم يكن من أولئك الفحول الذين صنعوا مجد المماليك فى مصر والشام، وجعلوا لدولة المماليك رهبة فى نفوس المغول الصليبيين، واكتسبوا شهرة صنعتها سيوفهم البتارة، ولم يكن حسن من طراز أيك وقطرز وبيبرس وبرقوق وقايتباى وطومان باى، ولا يرقى فى عظمتة إلى مسنده جده «قلاوون» أو أبيه السلطان الناصر «محمد بن قلاوون»، أو حتى عمه الأشرف «خليل» الذى كان له شرف الإطاحة بآخر قلاع الصليبيين فى عكا سنة ٦٩٠ هـ وحقق الأمل العظيم الذى راود نفوس أسلافه، وإنما كان شأنه شأن عشرات السلاطين الذين عاشوا وماتوا دون أن يتركوا وراءهم بصمة فى تاريخ الحكم والسياسة والحروب، ولكن من حقه علينا أن نذكره من باب الاعتراف بالفضل لأصحابه.

كان كريم النفس

هو الملك الناصر [حسن] التاسع عشر من ملوك الترك، وهو ابن سلطان مصر الشهير وصاحب الإنشاءات المعمارية الخالدة الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وأمه أم ولد، وصعته عام ٧٣٠ هـ وتولى سلطنة مصر يوم الثلاثاء رابع عشر من رمضان ٧٤٨ هـ بعد خلع أخيه الملك المظفر سيف الدين (حاجى) وجلس على تخت

الملك، وضربت البشائر، وتم أمره، وطاوعته المماليك، إلى أن وقع بينه وبين بعض الأمراء وحشة فخلعوه، وسلطنوا مكانه أخاه الملك (صالح) في أوائل رجب سنة ٧٥٢هـ، وظل رهين الحبس إلى أن أطلق، وأعيد إلى السلطنة بعد خلع أخيه الصالح في شوال سنة ٧٥٥هـ وتم أمره، وعظمت مملكته، وطالت أيامه، وعمر في هذه السلطنة مدرسته التي يقول عنها ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى: «لم بين فى الإسلام مثلها بالرميلة تجاه قلعة الجبل، وصرف عليها من الأموال ما يستحى من ذكره كثيره».

ويصف ابن تغرى بردى السلطان حسن بأنه كان كريم النفس، باراً بأهله وأقاربه، يميل إلى فعل الخيرات والصدقات، وكان يحب (أولاد الناس) دون المماليك، ولهذا طالت مدته، لولا أنه قدم مملوكه (يلبغا) فكان ذلك هو السبب لزوال دولته.

ونتوقف قليلاً أمام العوامل التى ساقها ابن تغرى بردى لتبرير استقرار حكم السلطان حسن، وهو ميله إلى (أولاد الناس) فلما تخلى عنهم واستعان بالمماليك زال ملكه. وأولاد الناس هم أبناء السلاطين والأمراء المماليك، ولم يكن يسمح لهم بالدخول فى سلك العسكرية المملوكية لأنهم كانوا أحراراً ولم يمسهم الرق، ففقدوا بذلك شرطاً أساسياً من شروط النظام المملوكى وهو العبودية، وكان سلاطين المماليك فى عصرهم الأول حريصين على احترام هذه التقاليد، فيحولون بين أولادهم وبين الشؤون العسكرية، وإنما تتاح لهم الفرص لشغل المناصب الإدارية والكتابية والعلمية، فبرع منهم كتاب ومؤرخون وصوفية أشهرهم المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى، صاحب النجوم الزاهرة والمنهل الصافى وغيرها من المؤلفات التاريخية الشهيرة، ومنهم سلطان العاشقين الشاعر الصوفى عمر بن الفارض. وبين أن السلطان حسن كان من الحصافة بحيث أبعد المماليك عن نظام حكمه، لما

يعلمه عنهم من طموح وغدر، وقرب أولاد الناس لما رآه فيهم من نبالة واحترام للعهود وعزوف عن الحكم، فوضعهم فى المناصب الإدارية العليا، الأمر الذى أثار عليه نقمة الأمراء المماليك فقال: والله ما قدمت أولاد الناس على المماليك لمحبة فيهم، ولكن مصلحة لى وللرعية وللبلاد، أما مصلحتى فإنهم لا يخرجون عن طاعتى، ومتى أرادوا ذلك نهاهم أقاربهم وحواشيهم عن ذلك، خوفا على أملاكهم وأرزاقهم، بخلاف المماليك، فإنهم لا رأس مال لهم فى مملكة من الممالك، وأما للرعية: فإن عندهم - أى أولاد الناس - شبع نفس، وعدم طمع، وأيضا خوفا منى لا يظلمون أحدا، وللبلاد: إنهم أعرف بالأحكام والسياسة والأخذ بخواطر الرعية من المماليك.

آخر العهد به

ولم تكن هذه السياسة ترضى الأمراء المماليك، فتأمرا على الخلاص منه، وتولى زعامة هذه المؤامرة أقرب ممالكة إليه المدعو (يلبغا) العمرى الخاصكى. الذى أعد للسلطان كميناً أثناء خروجه إلى الصيد فى ضواحي القاهرة، فلما وجد السلطان ضعف حراسه بالمقارنة إلى قوات (يلبغا) تخفى فى زى الأعراب، وحاول الهرب إلى الشام، ولكنه وقع فى يد أعدائه فقتلوا عليه. وكان ذلك آخر العهد به، ولم يعلم له خبر ولا أثر، وقيل إنه حنق، وألقى به فى البحر (النيل) ولم يعرف له قبر. وذلك يوم الأربعاء تاسع من جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هجرية، وله من العمر نيف على ثلاثين سنة تقريبا. وخلف من الأولاد عشرة ذكور وست بنات، وخلف من الذهب العين والخيول والقماش شيئا كثيرا. أما أعظم ما خلفه السلطان حسن، فهو تلك المدرسة التى أمر ببنائها عام ٧٥٧ هـ على أنقاض قصر كان يسكنه الأمير يلبغا، وخصص لهذا المشروع أموالا جمة استنزفت منه الشئ الكثير حتى أنه فكر فى الرجوع عن إتمامه وقال «لولا أن يقال إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه، لتركت بناء هذا

الجامع من كثرة ما صرف عليه. وليس من المستبعد أن يقول ذلك، فالبناء شامخ يدل على العظمة والجبروت وعلى المقدرة الفنية، كما ينم عن كثرة النفقات.

ويقول المقریزی إن العمل في بناء المدرسة والجامع استمر ثلاث سنوات بدون انقطاع في حياة السلطان حسن، ثم أضاف المقریزی قوله إن بهذا الجامع عجائب من البنیان منها أن ذراع إيوانه الكبير خمسة وستون ذراعاً في مثلها، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى الذي بالمدائن في العراق. ومنها القبة العظيمة التي لا مثيل لها في البلاد الإسلامية، ومنها المنبر الرخام الذي لا نظير له، ومنها البوابة العظيمة والمدارس الأربع بدور قاعة الجامع.

وتذكر الدكتورة سعاد ماهر نقلاً عن الأستاذ محمد رمزي قوله: هذا الجامع أضخم مساجد مصر عمارة، وأعلاها بنياناً، وأكثرها فخامة، وأحسنها شكلاً، وأجمعها لمحاسن العمارة، وأولها على عظم الهمة وغاية العناية التي بذلت في إنشائه، طوله ١٥٠ متراً، وعرضه ٦٨ متراً، ومساحته ٧٩٠٦ أمتار مربعة، وارتفاعه عند بابه حوالي ٣٨ متراً، وعلى جوانب صحن الجامع أربعة إيوانات معدة لإقامة الشعائر الدينية، وفي كل زاوية من زواياه باب يوصل إلى إحدى المدارس الأربع التي شيدها السلطان حسن ليدرس في كل مدرسة منها مذهب من المذاهب الأربعة، وإيوانه لشرقي من أكبر الإيوانات، سقفه معقود عقداً ستينياً فوق نصف الدائرة، وهو أكبر عقد بني على إيوان في مصر، والثلاثة متقاربة، وفي وسط الإيوان الشرقي محراب جميل، وعلى يمينه منبر من الرخام الأبيض، وبجانب القبة التي في الواجهة الشرقية بابان يوصلان إلى القبة. تبلغ وزرتها ٤٨ متراً، وبالجانب القبلي الشرقي المنارتان العظيمتان التي يبلغ ارتفاع كبراهما ٦٠، ٨١ متراً.

أروع آثار الفن المعماري :

وسأكتفى بهذا القدر من الأوصاف المعمارية، ولن أدخل في الدقائق والتفاصيل التي تخلب لب عشاق العمارة الإسلامية، ولكن أجد نفسي مضطراً لأن أعرض عليك شهادة واحد من علماء الفنون الإسلامية هو الأستاذ (أوليغ جرابار) الذي تولى تدريس هذه الفنون في كبريات الجامعات الأوروبية والأمريكية، وأصدر العديد من المؤلفات عن (النقود المعدنية في العصر الطولوني) و (الهندسة المعمارية الإسلامية وزخرفتها) و (الفضة الساسانية) و (مقدمات الفن الإسلامي). وقد جاءت شهادته ضمن كتاب من أجل الكتب التي وضعها علماء وأساتذة غربيون عن (عبقريّة الحضارة العربية). وتمت ترجمة هذا السفر الجليل بمعرفة مركز الوثائق والدراسات بدولة الإمارات العربية المتحدة، وبتشجيع من رئيس الدولة الشيخ زايد بن سلطان.

يصف (أوليغ جرابار) مدرسة السلطان حسن بأنها أروع آثار الفن المعماري في القاهرة وأكثرها شهرة، ومع ذلك يقف حائراً أمام الدوافع التي دفعت السلطان حسن على إقامة هذا المشروع الفريد رغم أنه كان حاكماً ضعيفاً (!!) وكيف وجد الوقت والمدد الكافيين ليبتنى أفخم مدرسة في القاهرة، وواحدة من أعظم ما بقى في العالم الإسلامي بأسره؛ ويجيب: ليس لدينا من الوثائق ما يحدد حيرتنا والسبيل الوحيد إلى التعليل هو التفكير في الأحوال السائدة في ذلك العصر، وبعض خصائص تدين المسلمين فيه، فمن منتصف القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) هو زمن الموت الأسود، أي الطاعون، وهو كذلك وقت أخذ فيه عدم الاستقرار السياسي يهدد ازدهار مصر من حيث التجارة بين الشرق والغرب، فقد أخذت دولة المماليك تفقد سيطرتها، وأصبحت بورجوازية المدن الممثلة في الطبقة المستنيرة ذات نفوذ بيرقراطي ومالي كبير داخل الدولة، ولذلك يقول جرابار- يمكن أن ننظر إلى مدرسة السلطان

حسن، على أنها صرح أقيم للتعبير على تدين الجماهير، وجمع شتات المجتمع المصرى الآخذ بالتفكك، وقد بنيت تكريماً لواحد من سلاطين المماليك، رغم كونه سلطاناً ضعيفاً، وهى رغم تركيزها على العلوم الإسلامية التقليدية تضى أهمية غربية وفريدة على كرامات الموتى، وقد نسج الناس خرافات حول ولاية سيدى السلطان حسن، مازالت تجدد من يؤمن بها، وكان النساء يجتمعن فى مبنى المدرسة لسماع الحكايات عنه، ومن هنا فإن المدرسة الوسطى، وضخامتها ذاتها تشهد بتزايد قوة تقاليد الجماهير فى مواجهة تقاليد الطبقة الأرستقراطية.

وهناك ميزة أخرى يراها أوليج جرابار لمدرسة السلطان حسن تسترعى الانتباه، هى منظرها العام، فهى مثال نادر لمبنى حضرى يرى من جميع الجهات، وهى بناء ضخمة، له بوابة ترتفع ٢٦ متراً، ومئذنه يبلغ ارتفاعها ٨٢ متراً على الأقل، ولكن أغرب ما يميزها تميمها ذو الخطوط الرأسية، والنوافذ المنحسرة والجدران العارية إلا من إفريز حول البناء لا يكاد يرى، وجميع هذه الصفات ألصق بالأساليب الحديثة، ولعلها هى التى ألهمت المهندس الأريكى (لويس سليفن) تصاميمه للمباني التجارية فى مدن أمريكا فى القرن التاسع عشر، وبغض النظر عما رمى إليه مهندسو السلطان حسن، فإنهم أوجدوا أشكالاً معمارية تصلح لوظائف المدينة فى كل مكان.

جامع وجامعة :

وقد أعطانا على باشا مبارك فى (الخطط التوفيقية) صورة وصفية دقيقة عن الكيفية التى كانت تدار بها المدارس الأربعة، والمخصصات التى كانت تنفق على الأساتذة والمعيدى والطلاب، والأوقاف التى حبسها السلطان لينفق من ريعها على النشاط الكبير فى الجامعة والجامع. فقد قرر لكل مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة شيخاً يشرف على تعليم مائة طالب، من كل فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة

معيدون. وعين مدرسا لتفسير القرآن الكريم ومعه ثلاثون طالبا، ومدرسا للحديث النبوي، ومقرئا لقراءة الحديث وثلاثين طالبا يحضرون يوميا، عهد إلى بعضهم أن يقوموا بوظيفة النقيب، والبعض الآخر يقوم بوظيفة الدعاء للسلطان عقب الدروس، ثم عين بالإيوان القبلي بالجامع شيخا عالما في الإفتاء، ورتب له مقرئا مجيدا للقراءة على أن يحضر أربعة أيام من كل أسبوع، منها يوم الجمعة، فيقرأ المقرئ ما تيسر له من القرآن، وما تيسر من الحديث الشريف، وعين مدرسا حافظا لكتاب الله عالما بالقراءات السبع ليجلس كل يوم ما بين صلاة الفجر والزوال بالإيوان القبلي، وقارئا آخر يجلس معه ليلقن القرآن لمن يحضر عنده، ثم عين اثنين لمراقبة الحضور والغياب أحدهما بالليل والآخر بالنهار، وأعد مكتبة عين لها أمينا، وألحق بالمدرسة مكتبتين بمدرسيهما لتعليم الأيتام القرآن والخط، وقرر لهم الكسوة والطعام، فكان إذا أتم اليتيم القرآن حفظا، يعطى خمسين درهما، ويمنح مؤدبه خمسين درهما مكافأة له.

وعين طبيبين مسلمين أحدهما باطنى، والآخر للعيون، يحضر كل منهما كل يوم بالمسجد ليداوى من يحتاج إلى علاج من الموظفين والطلبة، ورتب طبيبا ثالثا جراحا، وقد أرسد في وقفه مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين بقيمة ما يصرف لهم من المأكل كل ليلة جمعة، وما يصرف لهم في الأعياد.

ولالإشراف على رعاية المبنى وصيانته رتب السلطان سطوحيا لحفظ الأسطحة، وله في الشهر أربعون درهما، وثمانية لکنس المراحيض والطرق والرش أمام الجامع، وشخصين لکنس محل الطهارة، وشخص للإشراف على السقاة والسبيل ونقل الماء العذب، وأمر بشراء أربع موكبيات من الشمع الأبيض المشغول على القطن المفتول، وزن كل موكبية عشرة أرطال: اثنان لمحراب القبلة، واثنان لمحراب الإيوان الكبير القبلي، وتوقد وقت صلاة العشاء والصبح وعند صلاة التراويح في رمضان، ويصرف كل ما يحتاج إليه الجامع من لوازم الساقية وفرش المسجد بالحصر والبسط والقناديل

والسلاسل والأسطال والسفنج والمكانس وزيت الوقود ولوازم ليلة نصف شعبان وختم رمضان، وفي كل ليلة جمعة يصرف خمسة قناطير من اللحم الضاني، وثمان وعشرين قنطارا من الخبز والقرصة غيرالأرز والعسل والحبوب وحب الرمان والأدهان والحطب، وأجرة من يتولى طبخ ذلك وغرفه، وبعد الطبخ يصرف نصفه لأرباب الوظائف بجهات المسجد، ونصفه يفرق على الفقراء والمساكين، وفي أول كل سنة يشتري ما يكفي السنة من زيت الزيتون، ويوضع في مخزنه تحت يد الأمين المرتب لذلك. ويصرف كل سنة قيمة ثلاثة وعشرين قنطارا من السكر الأبيض النقي يفرق في رمضان على أرباب الوظائف بالمسجد بحسب الموضح في الوقفية.

وفي كل يوم من رمضان يصرف ثمن عشرة قناطير من اللحم الضاني، وأربعين قنطارا من خبز القرصة، غير ثمن الأرز والعسل وحب الرمان وأجرة الطبخ. وفي عيد الأضحى يصرف قيمة رأسين من الإبل وعشرين رأسا من البقر، وعشرة رؤوس من الضأن تذبح وتقسم نصفين.

فاذا بقى من ربع الوقف شيء بعد المصاريف المعنية يصرف في وجوه البر، مثل خلاص المسجونين ووفاء دين المدنين وفك أسر المأسورين، وإعانة الراغبين في أداء فريضة الحج، وتجهيز فقراء أموات المسلمين، ومداواة المرضى وإطعام الجرحى، وتسبيل الماء العذب، ومساعدة أرباب العاهات وذوي الحاجات من أبناء السبيل.

المدرسة تنافس قلعة

وكان موقع المدرسة بالقرب من القلعة وبالا عليها، فقد اتخذها المماليك حصنا يدافعون به عن أنفسهم أمامها؛ فحينما تقع فتنة بينهم يبادر الأمراء بالصعود إلى سطح المدرسة ويضربون القلعة بالقنبر، ولما تكررت هذه الحوادث أمر السلطان (برقوق) في سنة ٧٩٣هـ بهدم السلم الموصل إلى سطح المدرسة وسد ما وراء الباب النحاسي

الكبير، تم فتح شباك من شبايك المدرسة يوصل إلى داخلها. ولما استخدم الأمراء المشاغبون سلم المغارة فى الأغراض الحربية، أمر السلطان (جقمق) بهدم السلالم الموصلة إلى المآذن وذلك فى سنة ٨٤٢هـ.

وبقيت مدرسة السلطان حسن تتعرض للتقلبات بسبب استخدامها فى الأغراض الحربية، وبمرور الزمن انتشرت الدكاكين حول المدرسة والمسجد، حتى إذا جاء العصر العثمانى قام محافظ القاهرة (سليم أغا) بهدم الدكاكين، وأعاد فتح الباب الذى كان مغلقاً أمام المصلين بعد أن زالت الأسباب التى دعت إلى سده، ويذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٠٠هـ أن سليم أغا استأذن إبراهيم بك ومراد بك فى فتح الباب فأذنا له، وصنع له باباً جديداً عظيماً، وبنى له سلالم ومصاطب هى التى تواجه مسجد الرفاعى.

**

*

مراجع الكتاب

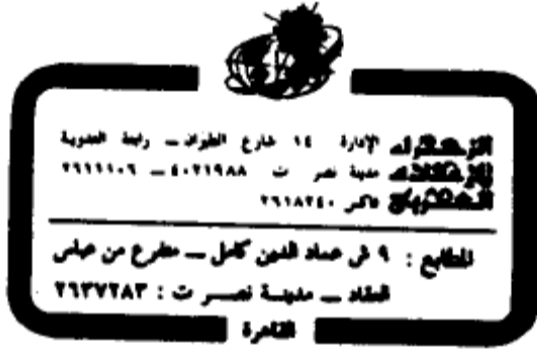
- السلوك لمعرفة دول الملوك: تقي الدين المقریزی .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة: جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى .
- المنهل الصافى: جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى .
- بدائع الزهور فى وقائع الدهور: محمد بن أحمد بن إياس .
- عقد الجمان فى تاریخ أهل الزمان: بدر الدين محمود العینى .
- مفرج الكروب فى أخبار بنى آیوب: جمال الدين بن واصل .
- الخطط التوفیقة: على باشا مبارك .
- تاریخ الممالیک البحرية: الدكتور على إبراهيم حسن .
- العصر الممالیکى فى مصر والشام: دكتور سعید عاشور .
- عصر سلاطین الممالیک: محمود رزق سلیم .
- تاریخ الدولة المغولية فى ایران: دكتور عبد السلام عبد العزیز فهمى .
- الدولة الخوارزمية والمغول: دكتور حافظ أحمد حمدى .
- نظم دولة سلاطین الممالیک: دكتور عبد المنعم ماجد .
- نظرات فى التاريخ الإسلامى: إبراهيم الإیارى .
- تاریخ المساجد الأثرية: حسن عبد الوهاب .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة
٩	الفصل الأول : دولة الأرقاء
٢١	الفصل الثاني : صوت سيده
٣٣	الفصل الثالث : القط يصير نمرًا
٤٩	الفصل الرابع : صريع القباقيب
٦٣	الفصل الخامس : قاهر التتار
٧٥	الفصل السادس : وإسلاماه
٨٩	الفصل السابع : فى أعقاب عين جالوت
١٠١	الفصل الثامن : المملوك سليل المملوك
١١٥	الفصل التاسع : مسرحية الخلافة
١٣١	الفصل العاشر : مسك الختام
١٤٣	الفصل الحادى عشر : على باب زويلة
١٥٥	الفصل الثانى عشر : مدرسة السلطان حسن
١٧٠	مراجع الكتاب
١٧١	فهرس الكتاب

رقم الإيداع : ١١٢٠٩ / ١٩٩٥ .

الترقيم الدولي : ٣ - ٢٧٥ - ٢٥٧ - ٩٧٧



مكتبة تاريخ وأثار دولة المماليك